مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

توفيق الحكيم

عصفور من الشرق

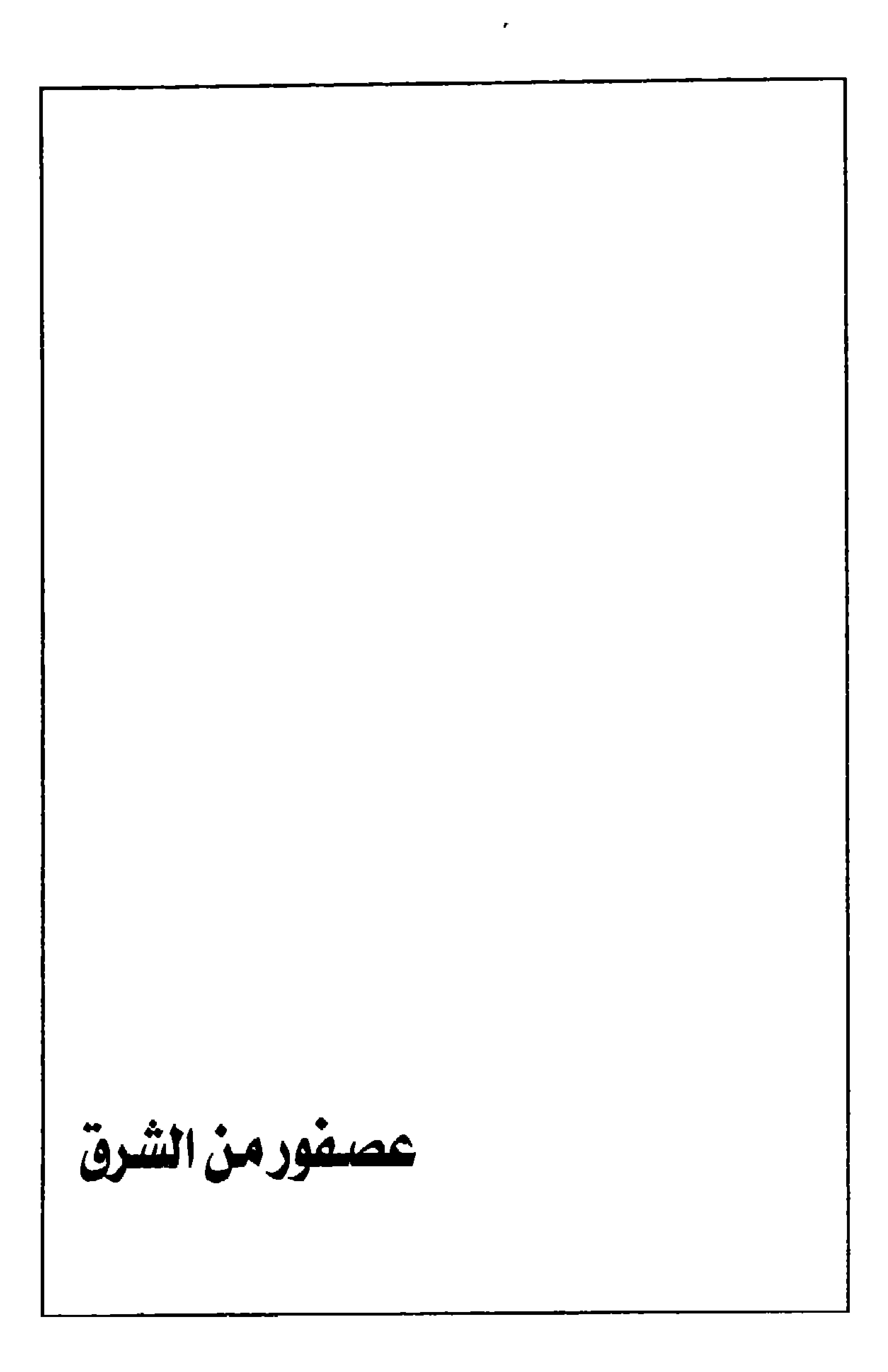
الأعمال الإبداعية



إهـــــــداء ٢٠١٢

محمد صالح الضالع

جمهورية مصر العربية



عصفور من الشرق

اسم العمل الفنى: عصفور من الشرق
التقنية: ألوان مائية على ورق
المقاس: ٣٥ × ٥٠ سم

محمود الهندى (١٩٤٧)

فنان مصرى، اهتم بفن صناعة الكتاب، وقد ساهم مساهمة فعالة ضمن مجموعة من الفنانين للإرتقاء بحركة طباعة الماستر منذ السبعينيات، فأشرف على العديد من المجلات والكتب: الثقافة الوطنية، الكتابة السوداء، خطوة، مجموعة كتب أصوات، وقام بعمل الأعداد التجريبية لمجلة تياترو، والمسرح، وجريدة الوحدوى اليمنية، ومجلة اليسار، وقضايا فكرية. وقد اتخذ صيغة خاصة فى إقامة معارضه بين دفعات الكتب: (ذكر مقتل الحلاج لابن زنجى) (ديوان ابن عروس) (أعمال النفرى). وقام بتصميم أغلفة الكتب لأغلب دور النشر، واهتم بكتاب الطفل: ديوان أمل دنقل، حكايات عن الحياة، حكايات الثعلب، العلم المصرى، بحر ومركب، الرك ع البركة، أشياء فى حياة الأنبياء.. هذا إلى جانب اهتمامه بتاريخ الأغنية المصرية: شارك د. أحمد مرسى فى تحقيق كتاب الأغنية الشعبية فى صعيد مصر لجاستون ماسبيرو، وقام بعمل عدة كتب عن: ألمظ وعبده الحامولى، ومرسى جميل عزيز.. وله تحت الطبع موسوعة رسامى الأطفال بالاشتراك مع الفنان صلاح بيصار.

عصفور من الشرق

الطبعة الرابعة

توفيق الحكيم



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الإبداعية)

عصفور من الشرق

توفيق الحكيم

تصميم الغلاف
والإشراف الفنى:
للفنان : **محمود الهندى**
الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد
الإشراف الطباعي:
محمود عبدالمجيد
المشرف العام :
د . سمير سرحـــان

الجهات المشاركة :
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقـافـة
وزارة الإعـلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشـبـاب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم:

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقى وملاحقة العصر إلاّ بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المعرفة نتنسم عطرها ربيعًا للثقافة المصرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهدًا ووعدًا ليس لنا إلا الوفاء به لتثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

د. سمير سرحان

كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

١ ـ محمد ﷺ (سيرة حوارية)	١٩٣٦
٢ ـ عودة الروح (رواية)	١٩٣٣
٣ ـ أهل الكهف (مسرحية)	١٩٣٣
٤ ـ شهر زاد (مسرحية)	١٩٣٤
٥ ـ يوميات نائب فى الأرياف (رواية)	١٩٣٧
٦ ـ عصفور من الشرق (رواية)	١٩٣٨
٧ ـ تحت شمس الفكر (مقالات)	١٩٣٨
٨ ـ أشعب (رواية)	١٩٣٨
٩ ـ عهد الشيطان (قصص فلسفية)	١٩٣٨
١٠ ـ حمارى قال لى (مقالات)	١٩٣٨
١١ ـ براكسا أو مشكلة الحكم (مسرحية)	١٩٣٩
١٢ ـ راقصة المعبد (روايات قصيرة)	١٩٣٩
١٣ ـ نشيد الأنشاد (كما فى التوراة)	١٩٤٠
١٤ ـ حمار الحكيم (رواية)	١٩٤٠
١٥ ـ سلطان الظلام (قصص سياسية)	١٩٤١
١٦ ـ من البرج العاجى (مقالات قصيرة)	١٩٤١
١٧ ـ تحت المصباح الأخضر (مقالات)	١٩٤٢
١٨ ـ بجماليون (مسرحية)	١٩٤٢
١٩ ـ سليمان الحكيم (مسرحية)	١٩٤٣
٢٠ ـ زهرة العمر (سيرة ذاتية ـ رسائل)	١٩٤٣
٢١ ـ الرباط المقدس (رواية)	١٩٤٤

كتب للمؤلف نشرت فى لغة أجنبية

شهرزاد : ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت عضو الأكاديمية الفرنسية فى دار نشر (نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى الإنجليزية فى دار النشر (بيلوت) بلندن ثم فى دار النشر (كروان) بنيويورك فى عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثرى كنتيننتزا بريس) واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية فى ليننجراد عام ١٩٢٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧ فى دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية فى واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب فى الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفى عام ١٩٧٤ و١٩٧٨ (طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية فى دار (هارفيل) للنشر بلندن عام ١٩٤٧ — ترجمة أبا إيبان — ترجم إلى الأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٨ وترجم ونشر فى السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١ وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دى فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٦ .

عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

ونشر طبعة ثانية فى باريس عام ١٩٦٠ .

عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس بعنوان (مذكرات قضائى شاعر) عام ١٩٦١

بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ ، وبالإنجليزيـة فى أمريكـا بدار نشر (ثرى كنتننتـزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

سليمان الحكيم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠؛ وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١

نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠

عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠

المخرج : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠

بيت النمل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠؛ وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٢ .

الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

براكسا أو مشكلة الحكم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإنجليزيـة فى أمريكـا بدار نشر (ثرى كنتننتـز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

شمس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الأيدى الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

شاعر على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن ١٩٨١ .

الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الشيطان فى خطر : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣ .

العش الهادئ : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣ .

دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينمان عام ١٩٧٣ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٥٣ .

لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن عام ١٩٨١ .

الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .

السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية لندن هاينمان عام ١٩٧٣

وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٤ .

يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية فى لندن عام ١٩٦٦ فى دار نشر أكسفورد يونيفرستى بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » بباريس) .

مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ .

مع : كل شىء فى مكانه .

السلطان الحائر .

نشيد الموت .

لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان — لندن .

الشهيد : ترجمة داود بشاى (بالإنجليزية) جمع محمود المنزلاوى تحت عنوان « أدبنا اليوم » مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة — ١٩٦٨ .

محمد ﷺ ترجمة د . إبراهيم الموجى ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .

المرأة التى غلبت الشيطان : ترجمة تويليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦ ونشر روتن ولوننج ببرلين .

عودة الوعى : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلى وندر ونشر دار ماكملان — لندن .

إلى حاميتى الطاهرة

السيدة زينب

الفصل الأول

مطر غزير ، قد ألجأ الناس إلى مظلات المشارب والحوانيت ، وإلى الحيطان وأفاريز البيوت ومداخل المترو ... ولم يبق فى ميدان « الكوميدى فرانسيز » غير مياه تتدفق من الميازيب ، وسيارات تخوض فى شبه عباب ... آدمى واحد ثبت لهذا المطر ، وجعل يسير الهوينا ، غير حافل بشىء ؛ عيناه الواسعتان تتأملان نافورة الميدان ، وهى زاخرة بالماء ، وفمه ذو الشفاه العريضة يلوك شيئاً كالبلح ، ويلفظ شيئاً كالنواة ، ويده اليمنى كالرسول الأمين — من جيبه إلى فمه — تواتيه بالمدد فى غير انقطاع ... هذا الآدمى فتى نحيل الجسم ، أسود الثياب ، على رأسه قبعة سوداء عريضة الإطار ، فى قمتها فجوة غائرة ؛ كطبق الحساء ، قد امتلأت بماء المطر ! ...

وفرغ الفتى من تأمل النافورة ، فغادرها إلى جانب آخر من الميدان ، يقوم فيه تمثال الشاعر « دى موسيه » وهو يستوحى عروس الشعر .. فوقف الفتى ينظر إليه — وقد نقش على قاعدته : « لا شىء يجعلنا عظماء غير ألم عظيم ! ... » ثم تطلع إلى وجه

الشاعر ، فألفى قطرات المطر تتساقط من عينيه كالعبرات ؛ فتحرك قلبه ، وسكت فمه ! .. ثم همس مردداً كالمخاطب لنفسه :

ـــ لا شيء يجعلنا عظماء غير ألم عظيم ! .. نعم ! .. ! ..

ومرت فى رأس الفتى صور من ماض بعيد .. ثم همس :

حتى هنا أيضاً يعرفون هذا ؟! ..

وغرق فى التفكير ، وغرقت قبعته فى الماء ، حتى فاض فسال على وجهه .. وإذا صوت خلف ظهره يصيح به :

ـــ أراهن ، بمائة فرنك ، أن لا مخلوق يقف هكذا أمام هذا التمثال إلا أنت ! ..

فاستدار الفتى سريعاً :

ـــ أندريه ؟! ..

ـــ قبل كل كلام ، انج بى وبنفسك من هذا المطر ؛ ليس هذا وقت النظر إلى التماثيل ! ..

ـــ بل هذا وقته ! .. تأمل يا أندريه ! .. هذه الدموع فى عينى الشاعر ! ..

ـــ لو لم يكن هذا الشاعر من رخام ، لولّى الساعة هارباً ، هو وعروسه ، إلى أقرب قهوة ، وتركاك وحدك ، وسط هذه المياه ! ..

ولم ينتظر الفرنسى جواباً من صاحبه ، بل جذبه إلى مظلة قهوة

« الريجانس » القريبة ، ثم نظر فى وجهه ، فوجد فمه يتحرك :

— عجباً ! ... ماذا فى فمك ؟ ..

فلم يجب الفتى .. ولفظ من فمه نواة ، وقعت فى الماء الجارى إلى « البلاليع » ، فصاح به أندريه :

— تأكل بلحاً ؟ ! ...

— نعم .. وفى شوارع باريس ! ..

— آه أيها العصفور القادم من الشرق ! ..

— فى مصر نسميه « عجوة » ... هذا النوع من البلح .. إنى أتخيل نفسى الآن فى ميدان المسجد بحى السيدة زينب ! .. وأتخيل هذه النافورة ... ذلك « السبيل » ، بنوافذه ذات القضبان النحاسية ..

— كفى تخيلا ! .. تعال ... لقد سكن المطر ..

— إلى أين ؟ ..

فلم يجب أندريه .. وأخذ ينظر إلى ملابس الفتى ، ويتأمله ؛ من قبعته السوداء ، ومعطفه الأسود ، ورباط عنقه الأسود ، إلى حذائه الأسود ، ثم قال :

— عظيم جداً ..

— ما هو العظيم جداً ؟ ! ..

ــ إنك الآن خير من يصلح للذهاب ...

ــ إلى فاتنتى الجميله ؟ ..

ــ بل إلى المدافن ... هلم معى ؛ لتشييع جنازة زوج بنت مدام شارل ! ... إن عليك « طقم » حداد كامل ... لكأنى بك دائما على أتم استعداد لمثل هذه الطلبات ! .. إنه ليسرنى أن أصحب مثلك إلى هذه النزهة القصيرة ..

ــ النزهة !؟ ..

قالها الفتى وهو ينظر إلى صاحبه شزراً ؛ ولكن صاحبه تجاهل النظرة ؛ وجذبه من يده ؛ وقال :

ــ تعال نؤدى معاً هذا الواجب ...

ــ نحو من ؟ ...

ــ نحو الفقيد المرحوم زوج بنت مدام شارل ! ...

ــ ومن هى أولاً مدام شارل ؟ ..

ــ هى والدة أحد زملائى فى المصنع ...

ــ وما ذنبى أنا ؟ ...

ــ ذنبك أنك صديقى ! ... فلتتحمل ما أتحمل ... لا شىء يثقل على نفسى ، مثل المشى صامتاً ؛ خلف عربات الموتى ! ...

ستتحدث ، على الأقل سوياً ؛ فى شئوننا بل فى شئونك أنت

إنى أعدك وعداً صادقاً ، بالحديث طول الوقت ، عن فاتنتك ذات الأنف ؛ الذى تقول إنه — غير فى نظرك — المثل الأعلى للأنف الجميل .. وقلب فى رأسك كل الصور والأوضاع ؛ التى كنت قد تخيلتها للجمال ! ...

— نعم ؛ نعم ! ... لقد كنت أعتبر الجمال ...

وانطلق الفتى يتكلم متحمساً .. و لم يفطن إلى « أندريه » وقد قاده من ذراعه ؛ ونزل به إلى إحدى محطات المترو ، واتباع له تذكرة فى الدرجة الثانية ؛ وأركبه قطاراً مرق بهما فى جوف الأرض مروق لسان « محسن » بذلك الحديث اللذيذ ... وابتسم أندريه ؛ آخر الأمر فى خبث ؛ ابتسامة من يقول فى نفسه : « إن معى الآن مفتاح قياده ؛ فلألوحن له « بها » يتبعنى صاغراً ؛ بغير أن يشعر ؛ إلى أقاصى الأرض ! ..

* * *

دقت نواقيس كنيسة « سان جرمان » احتفالا باستقبال الجثمان ؛ و لم تكن الجنازة قد وصلت بعد ؛ و لم يكن بباب الكنيسة أحد غير « محسن » ؛ فقد تركه « أندريه » عند الباب ، وذهب يشترى مظلة ؛ يتقيان بها المطر أثناء السير فى الطريق من الكنيسة إلى المقبرة ؛ وأبطأ « أندريه » على صديقه ؛ وبدت طلائع الجنازة ؛ واشتد دق

النواقيس .. ثم فتح باب الكنيسة على مصراعيه ؛ واقتربت عربة الموتى ، تتهادى حاملة التابوت ثاويا تحت باقات الزهر ، وخلفها المشيعون تحت مظلاتهم ، ووقفت العربة ، وحمل التابوت إلى داخل الكنيسة ، ومرت أفواج المشيعين بمحسن ، فى ملابسه السوداء الكاملة ، فانحنوا له حاسبين أنه من أهل الميت الأقربين ! .. هنا أدرك الفتى حرج موقفه ؛ فأسرع واندس فى فوج الداخلين ، قبل أن تقع عليه أعين أهل الميت الحقيقيين ، والناس تنحنى له ، فيظنوا بشأنه الظنون ...

دخل محسن الكنيسة ، ولم يكن قد دخل كنيسة قط ، ولا حضر صلاة ميت من أموات النصارى ، ولا رأى ما يجرى فيها من المراسيم ، ولا ما يتبع من الطقوس ؛ فأحس برهبة ، وخيل إليه أنه باجتيازه العتبة قد ترك الأرض ، وارتقى إلى جو آخر ، له عبيره ، وله نوره ! .. هنا أيضاً عين الخشوع وعين الشعور ، الذى كان يهز نفسه كلما دخل فى القاهرة مسجد السيدة زينب ! .. هنا أيضاً عين السكون ، وعين الظلام فى الأركان ، وعين النور الضئيل الهائم كالأرواح فى جو المكان ! .. إن بيت الله هو بيت الله فى كل مكان وكل زمان ! ..

وضع التابوت فى الصدر ، وأضيئت حوله الشموع ، وأخذت

أصوات الرهبان تعلو ، مرتلة الصلاة على أنغام الأرغن ، ثم تقدم الناس فى صف طويل نحو التابوت يمرون به — الواحد تلو الآخر — ينضحونه بماء مقدس من « قمقم » فضى ، ومشى « محسن » فى الصف ذاهلا خائفاً أن يحدث صوتاً على أرض الكنيسة ، وانتبه قليلا ، فرأى القمقم فى أيدى من أمامه فى الصف ، يرسم به الواحد علامة الصليب ، وهو ينضح به الميت ، ثم يسلمه فى صمت إلى من خلفه ، وراقب الفتى هذا الفعل يتكرر أكثر من خمسين مرة ، وهو يحسب ألف حساب لنوبته وأذهلته الرهبة فما راعه إلا القمقم يسلم إليه ممن أمامه فتناوله بيد ترتجف ، ولوح به نحو التابوت ، راسماً فى الهواء علامة ، لا يدرى من فرط اضطرابه : أدلت على صليب أم على هلال ! .. ثم نضح التابوت على نحو خشى معه أن يكون قد أكثر فبلل الغطاء ، ولكنه فرغ من مهمته على أى حال ، فتنفس الصعداء ، ومد يده بالقمقم يسلمه إلى من يليه ، فلم يجد خلفه أحداً .. كان هو الأخير فى الصف .. يا للكارثة ! .. ما العمل ! .. وحار وارتبك بهذا القمقم فى يده لا يدرى ما يصنع به ، وقد اشتغل عنه القوم بتعزية أهل الميت الواقفين عند باب الخروج ، وتصبب العرق بارداً من جبينه .. إنه يحمل فى يده شيئاً مقدساً ... كيف يتصرف إذن من تلقاء نفسه ، فى شىء مملوك لله داخل بيت الله ؟! .. إنها لمسؤولية

عظمى ! .. ولمحه أحد القسيسين فى هذا الموقف ؛ فبادر إليه وحمل عنه العبء ؛ فانصرف الفتى ؛ وكأنه يقول فى سذاجة : « ما أقوى كواهل أولئك الرجال الذين يتحملون كل تلك التبعات ، فى إدارة ممتلكات السماء ! ..» وأسرع « محسن » إلى اللحاق بالصف ؛ كى يعزى أهل الميت ؛ فما كاد يتقدم إليهم فى ملابسه السوداء ؛ حتى حملقوا فيه ؛ كأنما هم يتذكرون أو يتساءلون عن هذا الصديق الحميم ، الذى أتى يشاركهم مصابهم فى ثياب حداد كاملة ، لم يرتد مثلها بعض أقارب الميت ولاذويه ! ... وأعياهم التذكر ؛ وفهم « محسن » ما يجول بخاطرهم ؛ فلفظ سريعاً بضع كلمات غير مفهومة ؛ وانطلق إلى الخارج ... فوجد « أندريه » واقفاً تحت مظلة جديدة ؛ بين بقية المشيعين المنتظرين خروج التابوت ! ...

ورأى الفرنسى صديقه فابتدره محملقاً فى وجهه :

— مالك أصفر الوجه !؟ ..

فلم يجب « محسن » بغير قوله :

— اذهب وادفن زميلك ؛ أما أنا فإنى أنتظرك فى قهوة الدوم » ! ..

واختفى سريعا ؛ قبل أن يترك لأندريه وقتاً للكلام

جلس « محسن » وصاحبه « أندريه » فى قهوة « الدوم » بحى

« مونبارناس » ، وهى ملتقى أهل الفن : من مصورين ومثالين وشعراء ، وهى من أجل ذلك أصبحت ذات شهرة وصيت ، وهبط فى ذلك العام سعر الفرنك الفرنسى ، فهبط باريس سائحون كثيرون ، أغلبهم من الأمريكان ، انتشروا كالذباب فى كل مكان !..

وطلب « محسن » قدحًا من عصير البرتقال ، جعل يرشف منه فى بطء من خلال ذلك العود المجوف من القش ..

كان الجو خانقًا عصر ذلك اليوم ، ورطبًا ثقيلا .. وأخذ « محسن » يتأمل لون الشراب الأحمر لحظة ، ثم ما لبث أن أرتعد جسمه فجأة ..

لقد تذكر حلمًا غامضًا رآه الليلة الماضية .. قد يكون كابوسًا .. لا .. لم يكن بالضبط كابوسًا ذلك لأنه لم ير فيه شيئًا مزعجًا ، أو شيئًا مبالغًا فيه .. لقد كانت أحداثه طبيعية ، ومنطقية ..

لقد رأى « محسن » نفسه متهمًا بجريمة قتل ، ورأى ضحيته رجلا يجهل اسمه ، وشخصيته ..

أى سلاح استخدمه فى جريمته ؟!.. ولأى سبب كان كل هذا ؟.. هو لا يعلم شيئًا .. كل ما يعلمه ، أنه كان متهمًا ، وأن يديه ، كانتا ملطختين بالدماء ، ومكبلتين بالأغلال .. ثم رأى نفسه يستيقظ من نومه وهو يصيح ؛ أنا برىء ..! أنا برىء ..!

كان الوقت لا يزال ليلا .. قام فأضاء المكان ليرى يديه .. لمَ كان هذا الحلم ؟.. هل هو قاتل حقًا ؟.. ثم ماذا ؟!... ألم يقم بأداء فريضة الصلاة قبل النوم ؟..

إن منظر الدم كان شيئًا غير محتمل بالنسبة له .. إنه لم ينس قط بعض أيام الثورة .. ثورة ١٩١٩ ..

لم يكن قد أكمل بعد عامه العشرين .. لقد كان أبوه المستشار يريده محاميا .. وكان هو يرى أن رغبته كانت تتجه ناحية الفن ، والأدب .. ولذا كانت مهمته أثناء الثورة تأليف الأغانى الوطنية التى كان يلحنها هو بنفسه ، والتى كان يغنيها زملاؤه — شباب القاهرة — خلف قضبان السجن بحماس ، بينما كان هو لا يحمل سلاحا غير سلاح الحماس .. لم يكن يحمل — فى وسط الزحام — غير قلب مشتعل ، وأغانى وطنية حماسية ..

لقد رأى يومًا منظرًا من قريب بقى أثره مدى الحياة .. رأى جنديًا بريطانيًا شابًا يقف وحده ، وقد لمحه الثوار ، فأحاطوا به وضربه واحد منهم بقضيب من حديد على رأسه ، فشجها ووقع صريعا .. الدم كان يملأ وجهه ، وقد تناثر مخه فى كل مكان ..

لقد غشى الفتى « محسن » واعترته دوخة ، وكاد يغمى عليه .. وبينما ظهر الجنود البريطانيون مسلحين بالمدافع الرشاشة .. تفرق

الثوار فى الحوارى المظلمة ، وبقى « محسن » وظهره إلى الحائط يحدق فيما يرى ..

لقد كان من الصدفة أن الجنود لم تلمحه .. ولما تنبه طار مسرعًا يخطو فوق جثث القتلى فى حوارى مهجورة ..

إن منظر الجندى الشاب المضرج بدمائه لم يترك مخيلته ، لقد نسى أنه عدوه .. عدو وطنه .. إنه لم يعد يذكر إلا ذاك المنظر المحزن .. ذاك الموت الفظيع ..

وعندئذ تخلص « محسن » من أحلامه ، واستيقظ على صوت « أندريه » الضاحك ..

وطلب « أندريه » كأسًا من « البرنو » أخذ منه جرعة ، ثم التفت إلى صديقه قائلا :

ــ أتدرى أين دفنوا زوج بنت « مدام شارل » ؟..

ــ لا أريد أن أعرف أين دفنوه !..

ــ لماذا ؟..

فضاق « محسن » ذرعًا :

ــ وبعد ؟.. أخبرنى بحق ربك ، متى تعتقنى من هذا المدعو زوج بنت مدام شارل ؟!.. أما كفاك أنى صليت على روحه فى الكنيسة ونضحته من القمقم المقدس ؟!. آه !.. إنى لن أغتفر لك هذا التهاون

منك .. إنك كنت تعرف أنى داخل هذا الحرم المقدس ولا تقول لى حتى أعد نفسى !..

فابتسم « أندريه » وقال :

ـــ أيها العصفور الشرقى !.. تعد نفسك لدخول الكنيسة ما معنى هذا ؟.. إنا ندخلها كما ندخل القهوة .. أى فرق ؟؟.. هناك محل عام ، وهنا محل عام .. هناك الأرغن ، وهنا الأوركستر !..

فلم يلتفت إليه « محسن » وهمس كالمخاطب لنفسه :

ـــ بل هناك السماء !.. وليس من السهل على النفس الصعود فى كل لحظة .. إنه لمجهود !...

فلم يبد على الفرنسى أنه فهم عن « محسن » ولم يكلف نفسه عناء سؤاله ، ورفع كأسه ، وجرع جرعة أخرى ، ثم أشار بطرق عينه إلى أمريكية حسناء ، جالسة مع أسرتها على مقربة منهما ، وهى لا تفتر عن النظر إلى من حولها من فنانين ، ووقعت عيناها آخر الأمر على « محسن » فى ثيابه السوداء ، فغمزت من معها وهمست إليهم بكلام !..

ولحظ « محسن » نظراتها ، فقال لأندريه فى صوت منخفض :

ـــ لماذ يرمقوننى هكذا ؟..

ـــ يحسبونك من أهل الفن ؛ بهذه القبعة وهذه الملابس !..

— إنهم ينظرون إلىّ ؛ كما ينظر الإنسان إلى طائر غريب !.. أو لم يروا فنانا قط ؟.. يخيل إلىّ يا « أندريه » أن هؤلاء الأمريكان قوم خلقوا من الأسمنت المسلح : لا روح فيهم ، ولا ذوق ، ولا ماض !.. إذا فتحت صدر الواحد منهم وجدت فى موضع القلب « دولارا » !.. إنهم ليأتون إلى هذا العالم القديم ، حاسبين أنهم بالذهب يستطيعون أن يشتروا لأنفسهم ذوقا ، ولبلادهم ماضيا !..

و لم يظهر على « أندريه » أنه أصغى إلى كلام صديقه كله ؛ فلقد كانت عيناه تتبعان الأمريكية ، فقال :

— أهذه بربك من الأسمنت المسلح ؟!..

— لا تطل إليها النظر هكذا ؛ وإلا قلت لزوجتك « جرمين » !..

فهز الفرنسى كتفيه ومضى فى إظهار إعجابه :

— تأمل هاتين العينين الزرقاوين ؛ كأنهما فى لون زرقتهما بحيرتان من بحيرات الجنة ! ...

— كلا .. بحيرات الجنة فى لون الفيروز !؟...

— أيها المفتون !.. إنك لا ترى غير عينى فاتنتك التى لا تعرف اسمها !!..

فنظر « محسن » إلى الفضاء ، باسمًا سابحًا بخياله ، ثم قال :

— أعرف صوتها ؛ وهذا ليس بالقليل .. ليلة الأمس

فى « الأوبرا » ..

ــ كنتَ فى « الأوبرا » ؟..

ــ اطمئن .. أعلى « التياترو » ... وسمعت صوتها .. أعنى صوتًا كصوتها .. كل صوت جميل هو صوتها .. سمعته يغنى :

« قلبــــى يتفتــــح لصوتك كما تتفتــــح الأزهــــار »

« لقبلات الصباح »

الفصل الثانى

جلس « محسن » كعادته كل صباح إلى مائدة المطبخ ، فى المنزل الذى يقطنه ، آمناً شر البرد القارس فى الطريق ، مستعذباً نقر المطر على زجاج النافذة ؛ كأنه نقر أطفال على طبول صغيرة ، وقد وضع على رأسه قلنسوة مصرية من الكستور ، وفتح أمامه كتاب « الجمهورية » للفيلسوف أفلاطون ، وأمسك سكيناً جعل يقشر بها بصلا ، وبين آن وآن يلتفت إلى طفل فى الرابعة ، يلعب فى أحد الأركان متقلداً سيفاً زائفاً مما يلعب به الأطفال ، ومصوباً مدفعاً صغيراً من الصفيح نحو أعداء وهميين من الألمان : وكان الطفل يثرثر ويصيح ، موجهاً الكلام : تارة إلى أعدائه ، وتاره إلى جدته العجوز الواقفة أمام النار ، تهيئ مرقاً من لحم البقر ، وهى لاهية عنه وعما يقول ! ... وأخيراً التفتت إليه وسألته :

— ألست جوعانا يا « جانو » ؟ ...

— كلا ... إنى أحارب « البوش » ...

فقالت جدته فى تحمس :

— نعم ! .. قاتل « البوش » يا « جانو » ! ... ولا تبق منهم أحداً على وجه الأرض ! ...

فرفع « محسن » رأسه مستغرباً هذه الكلمة ، وقال :

— « البوش » ؟ ... من هم « البوش » ؟ ...

فابتسمت العجوز وقالت :

— هم الألمان .. نحن — عامة الفرنسيين — نطلق عليهم هذا الاسم ! ...

وصاح « جانو » :

— نعم هم الألمان ... جدتى ! ... لماذا هم ، يسمون بالبوش ؟ ...

فتفكرت المرأة قليلا ، ولم يسعفها علمها المحدود وقالت :

— لست أدرى ! ...

وأسرعت فغيرت مجرى الحديث ناظرة إلى « محسن » مبتسمة لانهماكه ى عمله :

— « برافو » يا مسيو « محسن » ! .. إنك لبارع حقاً فى تقشير البصل ! ...

فقال « محسن » دون أن يبدو فى نبراته تهكم أو تلميح :

— براعتك يا سيدتى فى الغناء والعزف على « البيانو » ! ..

فابتسمت ، ولم تدرك مراده وقالت :

ــ يا لك من فتى متملق ! ...

وأخفى « محسن » فى نفسه ابتسامة لذكرى ذلك اليوم الذى هبط فيه هذا المنزل ، فقد أرادت هذه المرأة أن تدخل على نفسه السرور ، وتملأ المنزل بهجة ومرحا ؛ فأرسلت فى طلب « جرمين » ، زوجة ابنها ، وأجلستها إلى « البيانو » ، وأخذت هى فى الغناء بصوت لم يعرف له « محسن » أصلا من الأصول ، وإذا الغناء ينتهى بصيحة ، ظنها « محسن » داخلة فى تركيب النغم ! .. ولكنها كانت صيحة شجار ، دب فجأة بين الحماة وزوجة ابنها ، واستفحل أمر الخلاف بينهما إلى حد أزعج الفتى ، فما راعه إلا غطاء « البيانو » يغلق فى عنف .. وزوج الابن تقوم إلى قبعتها ومعطفها ، فتضعهما عليها وضعاً فى غضب ، وتذهب نحو الباب تريد الانصراف ، وانقلب المنزل فى لحظة شر منقلب ، وامتلأ ــ لا بالمرح والبهجة والسلام ــ ولكن بالكدر والكرب ! ومامن سبب ظاهر استطاع « محسن » أن يستخلصه لكل هذا ... منذ ذلك اليوم و « محسن » يحسب حساباً لعزف العجوز وغنائها .. وإذا عزفت مرة أو غنت رفع عينيه إلى السماء ، وسأل المولى حسن الختام ! ..

التفتت العجوز مرة أخرى إلى « محسن » وإلى البصل ، ثم قالت

باسمة :

ــ لا بأس ! ... لك عندى ثمن عملك هذا يا مسيو « محسن » ! ... أتدرى ما هو الثمن ؟ ... سأعزف لك أغنية على البيانو ؟ ...

فلم يملك « محسن » نفسه وقال :

ــ أتسمين هذا ثمناً ؟! ...

ثم أستدرك ، وقال سريعاً :

ــ أية أغنية ؟ .. ينبغى أن نتفق على الأغنية أولا ..

فقالت المرأة :

ــ الأغنية التى تحبها ، تلك التى قلت لى إنك سمعتها فى دار « الأوبرا » ...

فاهتز « محسن » فى كرسيه ، وأنشد على الفور مطلع أغنية « سان سانس » :

« قلبى يتفتح لصوتك كما تتفتح الأزهار لقبلات الصباح ! ... »

فنظرت إليه المرأة فى عجب :

ــ ما أشد حبك للموسيقى ! ...

ــ إنها فى دمى ! ..

قالها محسن فى بساطة تنم عن حقيقة عميقة ، وفى لهجة تشير ــ عن

غير قصد — إلى ماضيه بأكمله ! ... ثم تناول السكين ، واستأنف تقشير البصل ، وهو يصغى فى أعماق نفسه إلى أنغام تلك الأغنية ليلة أنشدتها « تينون فالان » الشهيرة ، فى أوبرا باريس منذ شهرين ... ليلة جميلة عجيبة لا ينساها « محسن » ، فقد رأى فيها ما لم ير من قبل ، وسمع ما لم يسمع ، ولقد أراد فى تلك الليلة أن يتشبه — لأول مرة — بالموسرين، فاستأجر مقعداً فى صفهم ، وهو لايعلم أن ذلك يستلزم لبس ثياب السهرة الرسمية ، ونبهته العجوز ، فحار فى شأنه ؛ إذ ليس لديه هذا اللباس ، ورأى آخر الأمر أن يلجأ إلى الحيلة ؛ فاشترى صدر قميص أبيض منشى ، ربطه على صدره رباطاً وثيقاً ، بخيوط « الدوبارة » ، ثم أتى بأكمام منشاة ربطها كذلك حول معصميه .. وارتدى ملابسه العادية السوداء فوق هذا كله والعجوز تنظر إليه وتقول : « لو أنه حدث الليلة حادث استدعى خلع ملابسك لوجدوا فيك عجباً : إنساناً مربطاً بالخيوط من الداخل (كطرد) البريد ! .. » ، وحان الوقت ، ودخل « محسن » الأوبرا ، فما تمالك أن وقف مشدوهاً : أية عظمة وأى ثراء يشعران بالدوار ؟! .. وأى أنوار ؟! ...

عندئذ أدرك من فوره معنى مجسما لكلمة (الحضارة الغربية الكبرى) التى بسطت جناحيها على العالم ! ...

نعم ، ما كل هذا البذخ والإغراق فى الترف ، إلى حد الكفر والفجور والاستهتار : لكأنما جاء القوم — وأغلبهم من سراة الأمريكان إلى هذا المكان — يتساجلون الغنى والسعة وكبرياء المال ، أكثر مما جاءوا يلتمسون لذة التطهر والخضوع فى حضرة الفن ، أو لذة العودة إلى الإنسانية والروح على يد الموسيقى ! ... وصعد « محسن » سلم « الأوبرا » المشهور ، وهو يتصبب خجلا بين الصاعدين من أصحاب (الفراء) الثمين ، والقبعة العالية ، والقميص المنشى (الحقيقى) ، والسيدات الأنيقات فى أثواب الليل البراقة ، والحلى المتألقة ؛ كأنهن الشموس فى عالم الماس ، وخيل إلى « محسن » أنه قد دخل بين هؤلاء القوم بالغش والتدليس ، وأن هذا السلم الشهير يأنف من حمله وقد مرت عليه السنون ، وهو يحمل الجاه والمال فى العالم قاطبة ، ولعله المكان الوحيد الذى لا شك قد وطئته أقدام جميع الملوك ، فليس ببعيد أن يغضب السلم فى هذه اللحظة ويزلزل بـ « محسن » صائحاً : « لم يبق على آخر الزمان إلا أن يطأنى ، بنعله القديم ، مثل هذا الصعلوك القادم من الشرق ! .. » وتصور « محسن » أن خيوطه قد تحل لسبب من الأسباب ، فيسقط الصدر المنشى على الرخام ، وسط أولئك القوم المترفين فتكون الفضيحة ! ..

كانت ليلة أحس فيها الحرج والمذلة ، وعلم أن ثمرات الفن إنما هى أيضاً حق ، ووقف على طبقة الأغنياء ، وأن الطريق إلى الاستمتاع الروحى ينبغى أيضاً أن يفرش بالذهب ، وتمثلت له تلك الجمهورية الجميلة التى تخيلها الشعراء والفلاسفة فى كل زمان : جمهورية لاتعرف الفقر ولا تعرف الغنى لأنها لا تعرف الذهب ، وتعرف السلام لأنها لا تعرف الجشع ... الكل فيها مثل فرد واحد .. الكل فيها يعمل ، والكل يأكل ، والكل يقرأ وينعم ، والكل يلعب ويمرح ... أما الذهب فإنهم يصنعون منه مصابيح الطرقات وحوافر الجياد ... ياللسماء ! ... أو مُستطاع لمثل هذا الحلم الجميل أن يتحقق يوما ، على هذه الأرض ؟! ...

وتنبه « محسن » قليلا ، وترك تأملاته ، ورفع رأسه ؛ فألفى السكون قد هبط على هذا المنزل الريفى الصغير ، ولم يسمع إلا صوت لغط الدجاج فى الحديقة ، وصياح الديكة وهرج الأوز ، ثم ثرثرة « جانو » مخاطباً لعبه بين وآن وآن .. وكأنما سئم « جانو » اللعب آخر الأمر ، فنهض ودنا من المرأة صائحاً فى لهجته الصبيانية :

— جدتى ! .. الدجاجة الحمراء تبيض اليوم ...

فأجابت جدته فى تقطيب :

— « جانو » ! ... إنى لا آذن لك فى الذهاب إلى الدجاج

بمفردك ...

ــ سأذهب مع مسيو « محسن » ...

ــ لن تذهب اليوم ! .. إن المطر ينهمر فى الخارج والبرد شديد ! ...

ــ وماذا أصنع الآن ؟ ...

ــ حارب « البويش » ! ..

ــ حاربتهم ...

ــ قص على مسيو « محسن » كيف أراد الألمان أن يدمروا باريس ! ... ألا تذكر ما قلته لك عن هذا ؟ ..

ــ كلا ... إنى أريد أن أعود إلى منزلنا ! ...

ــ منزلكم خاو الآن ، وليس به أحد ... أنت تعلم أن أباك وأمك لا يرجعان من المصنع قبل الغروب ! ..

ودمدم الطفل وتبرم فى صوت كالبكاء ، ثم مشى فى بطء إلى حيث يجلس « محسن » ، وجعل ينظر إليه ، ثم مد يده الصغيرة إلى الكتاب المفتوح فوق المائدة ، وطفق يقلب صفحاته باحثاً عن صورة فيه ، ولم يتحرك « محسن » ؛ فقد كان عقله مشغولا ، ونظراته جامدة ، لا تتجه إلى شىء بعينه ؛ إنما كان يتساءل فى أعماق نفسه :

أليس فى كل فرنسا أمهات يلقن أطفالهن كراهية الألمان ؟ ... ومن

يدرى ؟ ... لعل كل نساء ألمانيا يعلمن أطفالهن كذلك بغض الفرنسيين ! .. ولتكن الأسباب ما تكون ... بأى حق تستطيع أم أن تنشئ ولدها على العداوة والبغضاء ؟ ...

ولكنه هو أيضاً نشئ على الكراهية ... كراهية الإنجليز ... إنه لن ينسى قط صورة أبيه الشاحبة حين دخل البيت ـ ذات مساء ـ مضطربا ، متأثراً ...

كان « محسن » يسمع المستشار من فتحة الباب يخاطب زوجه ، ويقول : إما التخلى عن الوظيفة ... وإما التخلى عن ضميرى كقاض .. إن أكل العيش أصبح مهدداً ..

كانت أم « محسن » عملية ، متيقظة ، فأحست بانتفاضة ... كانت طبيعتها متغيرة ، متناقضة ... فهى شجاعة ، ومع ذلك تراها خائفة ... وهى رحيمة وقاسية ... قوية وضعيفة .. وهى تحب العظمة إلى أبعد الحدود ، ولكن العظمة التى لا تكلف صاحبها شيئاً كبيراً ، والتى لا تتطلب التضحية ، ولا التى تهدد الحياة ، ولا حتى الأرزاق ...

كانت تفهم معنى الكلمات الرنانة مثل : الضمير ـ الحكمة ـ الشجاعة ...

وحالما علمت أن ضمير زوجها القاضى ، كان ألعوبة ، لم تتردد

فى أن ترتفع بأفكارها .. ناسية فى هذه اللحظة ما يترتب على فقدان المركز ، فأعلنت رأيها لزوجها قائلة : إن ضمير القاضى وشرفه قبل كل شىء ...

لقد كانت تعلم كل ما يدور حول هذا الموضوع ... والناس يتكلمون عن قضية فى الاستئناف ... والهمس يدور فى كل مكان ... « إن القضية مؤامرة من مؤامرات الإنجليز » ضد مدير أحد أقاليم الدلتا الذى اتهموه بالكبرياء ...

وكان المدير ابناً لإحدى الأسر الغنية فى الوجه القبلى ، تلقى علومه فى « أكسفورد » ، وعاش مدة كبيرة فى إنجلترا ، وكان يحبها مثل ما يحب بلاده ، بل كان يحب كل ما هو إنجليزى ...

وجاء إلى بلده ، فكان يرسل ملابسه مرتين فى الشهر إلى إنجلترا لغسلها وكيّها ... ثم عين يوماً مديراً لإحدى محافظات الوجه البحرى — وهناك اكتشف لأول مرة وجه الإنجليزى الحقيقى ..

لم يكن ذلك (الجنتلمان) الذى عرفه فى إنجلترا (رجلا محبوبا وشريفا) لقد أصبح كائناً آخر ، ذا خلق يتعارض مع مثيله الإنجليزى فى بلاده .. إنه الحاكم الذى يفرض سلطانه ، ويصدر أوامره على أكبر الشخصيات المصرية ... إنه لأمر عادى أن يستقبل المدير — وهو موظف كبير — أى موظف إنجليزى صغير يمر بالمحافظة ...

وكان هذا المدير ــ صديق الإنجليز ــ غير جاهل هذا التقليد المهين ، ولكن الشيء الذى كان يجهله أن ذاك الإنجليزى المحتل لا يقر صداقته للمصرى ... إن قاموسه لا يحوى غير كلمتى « سيد وعبد » ...

إن المدير ، كان قد قرر الاستقالة ، ولما علم الإنجليز بذلك لفقوا له تهمة .. فاتهموه ظلماً بأنه عذب بعض المتهمين فى قضية للحصول على اعترافات منهم ، وهذا عمل غير مشروع فى قوانين الإنسانية ، والقوانين المدنية !!! ...

لقد كانت عمليات ظاهرها الرحمة ، وباطنها الانتقام من شخص أرادوا إذلاله .. فباسم الإنسانية يهاجمون أعداءهم ويحاكمونهم ... هذه كانت طريقة الإنجليز التى يتقنونها ...

وكان ــ فى الحقيقة ــ مديرنا يجهل كل هذا التدبير .. إن الجناة يبرّءون ، والأبرياء يصبحون جناة ، وهم فى كل ذلك لا يعدمون الوسائل ..

وكان أبو « محسن » مكلفاً بالنطق بالحكم فى هذه القضية . وبعد أن حقق القضية جيداً ، ورأى الجروح المفتعلة فى أجسام المصابين ، وعلم حقيقتها ... خافوا ألاَّ تكون هذه أدلة قاطعة ، فجاءوا إليه بمن يسر فى أذنه ويقول له : « يجب أن يكون حكمك مديناً للمدير ،

وإلا ... » .

وكان القاضى يعلم يقينا ببراءة المدير ، كما كان الرأى العام يعرف ذلك ...

وجاءت الوعود بعد التهديد لعلها تفيد ... فقد لحوا له بالإنعام عليه بالرتب والنياشين فى غداة الحكم ..

فماذا عساه يفعل ... ؟

لذلك ، كانت أم « محسن » تتغلب على نزعتها ، وطبيعتها وتقول لزوجها : احكم بحسب ضميرك يا عزيزى ، وليكن ما يكون ...

وحكم القاضى بالبراءة ... ولكن هذا لم يمنع المعتدين من أن يجدوا نصاً قانونياً عاونهم على تحويل القضية إلى قاض آخر يتعاون معهم على إدانة المدير ، والذى أصبح بعد تلك القضية زعيما من زعماء الثورة المصرية ...

* * *

وتنبه « محسن » من تأملاته وذكرياته ... فقد انتشرت فى المكان رائحة شواء شهى ، فرفع بصره ، فألفى المرأة تخرج من الفرن فخذاً من لحم البقر ، أخذت تدهنه بالزبد وهى تقول :

— سيحضرون هذا المساء فى الساعة السابعة للعشاء ! ...

فقاطعها جانو صائحاً فى فرح :

ــ وهل « جيزيل » ستحضر أيضاً يا جدتى ؟ ..

فابتسمت المرأة والتفتت إلى « محسن » غامزة بعينها :

ــ بالطبع ، ستحضر « جيزيل »مع والديها ! ...

فتهلل وجه الطفل ، وطفق يثرثر كالببغاء ، وابتسم « محسن » متذكراً أيام الطفولة الأولى ! ..

* * *

دقت الساعة الواحدة في مصانع « كوربفوا » القريبة ، فأسرعت المرأة إلى قاعة الأكل وجعلت تهيء مائدة الغداء ، وسمع صرير مفتاح فى الباب الخارجى ، ثم بدا فى الدار شيخ ، ما كاد « جانو » يسمع صوت نعله وسعاله ، حتى انطلق نحوه يجرى ويصيح :

ــ « جدى حضر ... ! جدى حضر ... !

ودخل الرجل المطبخ ، ونشر مِظلة فى يده بللها ماء المطر ، ومد يديه إلى النار ، وهو يحادث زوجه فى شئون المعاش بعبارات يقطعها سعال عنيف .. وأصغت إليه المرأة حتى فرغ من حديثه ، فقالت له فى صوت اليائس :

ــ صفوة القول ، ليس لنا أن نأمل فى عمل بأحد المصانع ؛ أليس الأمر كذلك ؟ ..

ــ الوقت عسير يا عزيزتى ، والمصانع لا تريد أن تمنح أمثالنا

القوت ؛ لأن لديها حاجتها من العمال .. من أولئك العمال المساكين ، الذين تسخرهم طول اليوم من أجل لقمة كالعبيد ! ..

— وماذا نصنع نحن إذن ؟ ... ينبغى أن تذكر أن ولديك « أندريه »و« مارسيل » لن يستطيعا بعد اليوم إمدادنا بالمال ؛ فلقد اعتزم « أندريه » إلحاق « جانو » بمدرسة داخلية وفى هذا باب جديد للنفقات سيتكلفه المسكين ، كذلك « مارسيل » يتكلف الباهظ من المال منذ عام فى الإنفاق على تعليم « جيزيل » ! ...

فأطرق الرجل ملياً ... ثم قال :

— صدقت ! .. ليس لنا إذن من مورد إلا ..

والتفت يمنة ويسرة باحثاً عن « محسن » بعينين خابيتين تحت المنظار ... وأدركت المرأة مراده ، والتفتت إلى مكان« محسن » من مائدة المطبخ فوجدته خالياً فقالت :

— « عصفور الشرق » صعد إلى حجرته من غير شك ؛ كى يضع كتابه ويتهيأ للغداء ... نعم ليس لنا من مورد إلا ما يدفعه هذا الشاب ..

صمت الرجل لحظة متفكراً ، ثم قال :

— أترى تطول إقامته بيننا ؟ ..

ـــ من يدرى ؟ .. لقد قال لى ذات يوم إنه سيمكث عامين أو ثلاثة .. آمل ألا يسأم حياة الريف ، ويفر إلى باريس !...

فظهر القلق على وجه الشيخ ، ثم نظر مفكراً إلى النار المتأججة فى الوجاق ، وقال كمن يدخل على نفسه الاطمئنان :

ـــ كلا ؛ إنه ، فيما يبدو لى ، شاب لا يميل إلى اللهو كسائر الشبان ! ...

ـــ حقيقة ، إنه لا يحب سوى المطالعة والتأمل والموسيقى ، لكن من يدرى إن كان يلبث فينا كل مدته ؟ .. ليس لنا إلا أن نأمل ! ..

هز الرجل رأسه وأطرق صامتاً ، ثم دس يده فى جيبه ، وأخرج لفافة تبغ ، وجاء « جانو » يجرى وقفز إلى ساق جده فامتطاها ، كما يمتطى الحصان ، وطفق يحدثه بمجىء « جيزيل » المنتظر ! ..

الفصل الثالث

فرغوا من الغداء ، وانصرفت المرأة إلى الأوانى والأطباق تغسلها فى المطبخ وتتأهب للعشاء ، وجلس زوجها على مقربة منها يدخن ويطالع جريدة « الأومانيتيه » ـــ الإنسانية ـــ المنتشرة فى طبقة العمال وأهل الفاقة ... وخلا « جانو » إلى لعبه ومدافعه وحربه الضروس ، وأغلق « محسن » حجرته عليه ، ووضع كتابه أمامه وقرأ صفحتين ، ثم جمدت عيناه على الكتاب ، و لم يعد يقرأ أو يبصر شيئًا ؛ فقد ترك الحجرة ، وغادر الأرض ، وضل فى بحار التأملات !...

وأقبل المساء أخيرا ، ورن جرس باب الحديقة ، فترك « جانو » لعبه وأسرع نحوه ، ثم لم يلبث أن صاح فى فرح :

ـــ « ماما حضرت !... بابا حضر !... » .

وظهرت امرأة فى مقتبل العمر ، جذابة الوجه ، تعلق بها « جانو » ، وهى تدفعه عنها فى رفق ، وخلفها زوجها « أندريه » ، وعليهما ـــ هما الاثنان ـــ مظاهر التعب والقوى المنهوكة ، ومسحت العجوز يديها فى « فوطة » المطبخ التى ترتديها ، وأقبلت على زوج ابنها

تعانقها ، وتتأمل وجهها وتقول فى حسرة متصنعة :

ـــ إنك متعبة منهوكة القوى يا « جرمين » !...

فأجابت الزوجة ، وهى تنظر إلى زوجها الشاب :

ـــ إننا لم نخرج من المصنع إلا الساعة !...

واتجهت العجوز إلى ابنها تعانقه ، وتصيح فى حرارة حقيقية :

ـــ وأنت أيضا يا « أندريه » !... ما كل هذا الشحوب ؟...

ـــ إننا يا أماه نعمل ثمانى ساعات فى النهار !...

قالها « أندريه » وهو ينظر إلى أبيه ، وكان أبوه قد طرح الصحيفة من يده ، واتجه إلى « جرمين »و« جانو » يباسطهما ، فلما سمع قول « أندريه » صاح فى حدة :

ـــ يالها من وحشية ! .. إن هذا لم يعد يسمى عملا ، إنما هو الاسترقاق ... الرق لم يذهب من الوجود ...لقد اتخذ شكلا آخر يناسب القرن العشرين .. ها هى ذى جيوش من العبيد يسخرها أفراد معدودون من السادة الرأسماليين ! ..

ورفع « جانو » بصره إلى جده ، ولم يدرك سبباً لحدته ! ..

وحانت من « أندريه » التفاتة إلى الصحيفة الملقاة على الأرض ، فابتسم وقال :

ـــ أهذا ما قرأته اليوم فى « الأومانيتيه » يا أبتاه ؟ ...

فأجاب الرجل فى جِد وحدة :

ــ نعم ، أو ليس هذا هو الحق ؟! ..

ــ من غير شك هذا هو الحق ، ولكن ماذا نصنع نحن الفقراء ؟ ..

ــ ينبغى أن تنقص ساعات العمل على الأقل ، حتى تستردوا بعض حريتكم ، وبعض وقتكم ، وحتى تنقذوا ما بقى لكم من صحتكم ، وحتى نجد لنا ــ نحن العاطلين ــ عملا وكسبا نسد به الرمق ! ..

ــ إنك تجهد نفسك فى الكلام يا أبتاه ! .. لقد قلت الحقيقة : نحن عبيد القرن العشرين ، ومتى كان للعبيد حق الاعتراض أو حق الاقتراح ؟ ...

وأراد الشيخ أن يجيب ، ولكن « جانو » تململ ونظر إلى والديه ، وإلى جدته وصاح :

ــ لماذا أبطأت « جيزيل » ؟ ...

وجعل الطفل يجذب ثياب أمه ملحاً فى السؤال ، فضربت الأم على يده الصغيرة فى لطف ، وخلصت ثيابها منه ، وأرادت جدته أن تقصيه ، فقالت له :

ــ اذهب وجىء بمسيو « محسن » ؛ فقد أزف ميعاد العشاء ! ...

وتنبه « أندريه » فسأل على الفور :

ـــ أين عصفور الشرق ؟ ... لقد فاتنى أن أسأل عنه ساعة دخولى ؟! ..

ـــ فى حجرته ! ..

فاتجه « أندريه » نحو سلم الدار ثم عاد يقول :

ـــ لست أرى نوراً فى حجرته ! ..

فأجابت الأم العجوز ، وهى تقطع رغيفاً طويلاً من الخبز :

ـــ إنه فى حجرته ... جالس إلى مكتبه ، وطالما يفاجئه المساء ، وهو أمام كتابه بلا حراك ، وكثيراً ما أدخل حجرته فأجد الظلام مخيما عليه ، وهو جالس جامد كالتمثال ؛ فأدير له مفتاح الكهرباء ! ..

ـــ إنه غريب الأطوار ! .. إنى أعرفه حق المعرفة ! ..

وعندئذ دق جرس الباب الحديدى ، فمرق « جانو » من بين الجميع إلى الباب ، وهو يصيح كالعصفور الصغير :

ـــ « جيزيل » ! ..

* * *

اجتمع الكل حول المائدة ، وكانوا قد انتهوا من العشاء منذ قليل ، ولبثوا فى مقاعدهم يتحدثون عن الاشتراكية ، وقد فشا أمرها فى باريس ، وأمست بدعة من البدع يتبعها الناس مقلدين .. إن الحياة

أمست عسيرة ، وإن سعر الفرنك هوى إلى الحضيض ؛ وإن فرنسا الآن فريسة أصحاب المال الأمريكيين ، وإن هؤلاء الأمريكان قد بلغ من عتوهم واعتدادهم بثرائهم أن الواحد منهم لا يوقد « سيكارة » إلا بورقة مالية مشتعلة ، تحت أنظار الشعب الفرنسي الفقير ! ...

هنالك صاح زوجها الشيخ في غيظ :

— يالهم من أنذال !! ..

ثم استطردت العجوز فجأة ؛ وكأنها استكشفت شيئاً :

— لا ريب أنهم هم السبب في غلاء أسعار الخضر واللحم والفاكهة ؟! ...

وألقت نظرة استفهام على الحاضرين ، فإذا هي ترى « جانو » وابنة عمه « جيزيل » قد جلسا متلاصقين يأكلان « الجاتو » ولا يكفان عن الكلام ! ..

ونفد نصيب « جانو » فجعل ينظر إلى « جيزيل » التي تكبره بعامين ، وهي تأكل في تؤدة وكياسة ، وفطنت الطفلة إلى فمه العاطل ، وإلى نظراته الطامعة ، فما ترددت ، وتقدمت إلى صديقها بكل ما بقي لها ... ولم يأب عليها « جانو » ، وقبل منها هديتها ، وطفق يلتهم ما أعطته إياه ، وهو ينظر إليها بعينين باسمتين ، كلهما اعتراف بالجميل ، لكنه لم يقل شيئاً .. هنالك تجهمت له جدته

وصاحت به :

ــ « جانو » ! .. ألا تقول لها شيئاً ؟ ..

فالتفت الطفل إلى جدته فى سذاجة :

ــ أقول ماذا ؟ ..

ــ تقول ماذا ؟ .. تقول ما يقول الناس ، عندما يتقبلون شيئاً من الغير ؟ ..

ــ ماذا يقول الناس ؟ ...

ــ يقولون : « شكراً » ، ولقد علمتك ذلك ألف مرة ...

ثم التفتت إلى والدى الطفل فى قنوط :

ــ لم يبق لى جلد على تهذيب هذا الغلام ، وإلى أصارحكما القول : هذا ليس من عملى ، إنما هو من عمل الأبوين ، ومادمتما تتركان لى ابنكما طول النهار ، وتنصرفان إلى المصنع ، فلا أمل لى أن ينشأ ولدكما على الخلق القويم ! ..

فأجاب « أندريه » فى غير اكتراث :

ــ وهل تظنين يا أماه أن هذا من عملنا نحن ؟ .. هذا من عمل المدرسة ، وسندخله المدرسة ؛ أما نحن فلدينا عمل آخر كما تعلمين ! ...

ــ نعم .. المصنع ! ...

فقال الشيخ فى تهكم :

ـــ بالطبع .. المصنع !! ..

فهزت « جرمين » كتفيها ، فقالت العجوز فى حدة :

ـــ لا تهزى كتفيك يا « جرمين » ! .. إياك أن تنسى لحظة أهمية تأثير البيت .. فى زماننا كان البيت هو كل شىء ! ... آه ، لقد ذهب كل شىء طيب بذهاب زماننا ! ...

فقال « أندريه » وأخوه « مارسيل » فى وقت واحد :

ـــ إين هو البيت اليوم يا أماه ؟ ...

فتأملت العجوز قليلا هذا القول منهما ، ثم أجابت :

ـــ صدقتما ، لم يعد هنالك بيت واأسفاه ولم تعد هنالك أسرة ... الرجل والمرأة فى المصنع طول النهار ! ... يا له من زمن عجيب ! ...

فقال الشيخ فى قوة واقتناع :

ـــ قلت لكم هذا عصر العبيد قد عاد من جديد ! ...

وانتبه « محسن » لهذه العبارة ؛ فلمعت عيناه ببريق غريب ، ثم لم يلبث أن أستأذن من الحاضرين فى الصعود إلى حجرته ، فأذنوا له باسمين ، فصعد وجلس إلى مكتبه فى الظلام ، وهو يهمس :

ـــ « نعم » ، لن يذهب الرق من الوجود ... لكل عصر رقه وعبيده ! .. »

الفصل الرابع

لم يمكث « محسن » طويلا غارقا فى تأملاته ؛ فقد ضُرِب عليه الباب ، فانتبه ، وإذا صديقه « أندريه » وزوجته « جرمين » يضيحان به :

ــ عصفور الشرق وحيد فى القفص ! ...

فقال « محسن » كالمخاطب نفسه :

ــ إنى دائماً فى قفص ! ...

فقال « أندريه » فى ابتسامة خبث :

ــ فى قفص الحب سجين أيها المسكين ! ...

ــ نعم سجين ! ...

ــ أتعترف بهذه السهولة ؟ ...

ــ وما فائدة الإنكار ؟ ...

ــ ولماذا لا تنطلق حراً مغرداً فى فضاء الحب ؟ ...

فأسرع « أندريه » قائلا :

ــ إنك تطلبين المستحيل ... إنه سيظل دائماً هكذا .. إنه حتى

الآن لم ينجح حتى فى الوصول إلى معرفة اسمها ...

فقالت « جرمين » فى ضحكة خفيفة :

ــ لم يعرف بعد اسمها ! ... حقاً إنه لمحب خائب ! ...

فاتخذ وجه « محسن » لون الجد الصارم ، وقال فى هدوء وموافقة واقتناع :

ــ أما إنى محب خائب ؛ فهذا صحيح ، ولا محل للجدل فيه ، وقد أعيتنى هذه الخيبة فى كل زمان ومكان ! ..

فقال « أندريه » سائلا :

ــ ألم ترها اليوم ؟ ...

ــ لم أرها منذ أسبوع ، ولم أنصرف إلى غير مطالعاتى ... إن الكتب تستطيع أن تشغل رأسى حقيقة ، لكن هل الرأس هو كل شيء فى حياة إنسان ؟ ... آه ! ... إن أجمل لحظاتى ساعة أقف أمامها أنتظر ، وأنا أعلم أنها لن تلقى إلىّ بكلمة تسر خاطرى .. مرة واحدة نبذت إلىّ عفواً بنظرة وقالت لى :

« أما تزال واقفاً ها هنا ؟ .. أى مخلوق أنت ؟! ... »

ــ وما قصدها من هذا ؟ ...

ــ لست أدرى ! ... فسّر هذه الجملة كما تشاء ... أما أنا فقد فسرتها طبعاً لمصلحتى .. إنى أحب هذه العبارات المبهمة التى أتخيل

معناها كما أشاء ! ..

ــ إنك رجل خيالى ، وهذه مصيبتك ! ...

قالها « أندريه » وهو ينظر إلى « جرمين » ، فأمنت على قوله برأسها وأضافت :

ــ من غير شك ، لا سبب عندى لفشل « محسن » غير أنه خيالى أكثر مما ينبغى ؛ والمرأة لا تقنع بالخيال ، بل بالحقيقة ...

فلم يعترض « محسن » وقال فى إذعان :

ــ وأين هذه الحقيقة ؟ ... دلانى على هذه الحقيقة التى أكسب بها عطف المرأة !؟ ...

فقالت « جرمين » :

ــ أتريد أن تعلم أين تجد هذه الحقيقة ؟ ...

ــ نعم أخبرينى أين هى ، وأنا لا أنسى لك أبداً هذا الجميل ! ..

ــ إنها تشترى بالثمن ؟ ...

ــ كم الثمن ؟ ... كل حياتى فيما أعتقد ! ...

ــ بل عشرون فرنكا فقط ...

ــ أتمزحين ؟ ..

ــ بل أقول جداً ... عشرون فرنكا فقط ، تشترى بها من حانوت شارع « هوسمان » زجاجة عطر « هوبيجان » صغيرة ،

وتقدمها إلى صاحبتك فى الصباح ... هذه هى كل الحقيقة ... فهمت ؟ ...

فحلق « محسن » فى الفضاء ؛ كأنما قد كشف عنه حجاب ، ثم التفت إلى « جرمين » وقال :

ـ أحقا ما تقولين ؟ ...

فابتسمت « جرمين » وقالت فى صوت المتعجب :

ـ يدهشنى أن فتى ذكياً مثلك يجهل هذا ! ...

ـ قارورة « هوبيجان » فقط ! ... ثمنها عشرون فرنكا ! ... إنك تبالغين يا سيدتى ! .. إنها لجديرة أن أضع تحت شباكها قلبى كله ! ..

ـ شباكها ؟! ...

ـ لن أقدم إليها شيئاً زهيداً من هذه الأشياء ! ...

ـ أين صاحبتك يا « محسن » ؟ ...

فأجاب « أندريه » فى الحال عن صديقه باسماً :

ـ قلت لك يا « جرمين » إنه لا يعرف من هى ، ولا يدرى عنها شيئاً ! ..

فقال « محسن » ، دون أن يخرج عن هدوئه :

ـ هذا صحيح ! ..

وازداد عجب « جرمين » فقالت تسأل الفتى :

— يا للغرابة ! ... وأين تراها إذن ؟! ..

فأجاب « محسن » :

— أراها فى شباكها ، تشرف على الناس بعينين من فيروز ، وهم يمرون أمامها الواحد تلو الآخر ، من كل جنس ومن كل طبقة فيهم الفقير مثلى ، وفيهم الموسر مثل ملك من الملوك ... فيهم الجميل والقبيح ، وفيهم العجوز والشاب ، وفيهم السعداء والتعساء ، وفيهم الأخيار والأشرار ، وفيهم الشجعان والجبناء ، وفيهم الجرىء والخجول ... نعم ! ... يمر بين يديها كل يوم هذا الموكب ، وهى تبسم من شباكها بين آن وآن دون أن يعرف أحد سر قلبها ! ...

فنظرت « جرمين » إلى « محسن » ملياً ثم قالت :

— أهذه المرأة فى باريس ؟ ... أم فى كتاب ألف ليلة وليلة ! ...

وقال « أندريه » ضاحكا :

— وهذا الشباك أين هو ؟ ... فى أى قصر سحرى ؟ ...

وأردفت « جرمين » ضاحكة :

— وهل توجد حقاً فى باريس تلك المرأة التى يمر بين يديها الناس وهى فى الشباك ؟! ...

فأجاب « محسن » فى هدوء :

— فى شباك التذاكر ! ...

فصاحت « جرمين » وقد فهمت مراده :

— آه ! ... هى عاملة فى شباك تذاكر ...

— « تياترو » الأوديون ! ...

قالها « محسن » كالحالم ، وضحكت « جرمين » ، وضحك « أندريه » ثم قال :

— أتسمع نصيحتى يا « محسن » ؟ ... اذهب غداً وقدم إليها طاقة من الزهر ، ثم ادعها إلى العشاء فى مطعم فى المطاعم ! ...

فتفكر « محسن » قليلا ، ثم قال :

— وإذا لم تقبل منى طاقة الزهر ؟! ..

فقالت « جرمين » من فورها :

— لا يوجد امرأة فى باريس ترفض طاقة من الزهر ! ...

الفصل الخامس

ـــ « مدموازيل » ! .. ألم يأت بعد ؟ ...

ـــ من ؟ ...

ـــ ذلك الفتى الذى يضع المعطف الأسود فوق منكبيه ...

ـــ لست أدرى يا « كلوتيلد » ... لا أظن أنى رأيته اليوم ...

ـــ إنى أراه دائماً جالساً فى القهوة التى أمامنا يطيل النظر إلى هذا الباب ! ...

ـــ لعله مجنون ! ..

وعندئذ أقبل رجل فى سن الشباب جميل الهيئة ، دخل تواً على عاملة شباك التذاكر ، من ذلك الباب الذى كتب عليه بخط كبير : « الدخول ممنوع » فما إن رأته « كلوتيلد » العجوز حتى تناولت مكنستها ، وهرولت إلى عملها ، وهى تهمس :

« الرئيس » ! ...

ـــ من هو المجنون يا « سوزى » ؟ ..

قالها ذلك الرجل ، بعد أن ألقى على الفتاة الجميلة نظرة لا يدرك

معناها غيرها ! .. فهزت كتفيها ولم تجب ، فألح الرجل فى شدة وغضب :

— قلت لك أريد أن أعرف من المجنون ؟ ..

فرفعت رأسها ، ونظرت إليه بعينين متسعتين فى لون الفيروز ، تزينهما أهداب طويلة شقراء ، ثم قالت فى صوت لا يدرك معناه إلا هو :

— لست أنت المقصود على أى حال ! ..

— من إذن ؟ ..

— فتى آخر كنا نتحدث عنه ! ..

— فتى !! ...

— لست أعرف بعد من يكون ، اعتاد أن يأتى كل يوم إلى هذا الشباك ، فينتظر حتى ينفض الناس ويخلو المكان ، فيتقدم إلىّ قائلا : « بونجور مدموازيل ! ... » فأرد عليه التحية ، فيقف يطيل إلىّ النظر صامتاً ، ثم يتحرك قائلا : « أورفوار مدموازيل ! » ، ويمضى لشأنه ! ..

— أحد المعجبين من غير شك ! ..

قالها الرئيس الشاب فى نبرة غريبة .. فأجابته « سوزى » على الفور :

ـــ بل مجنون .. هذا كل اعتقادى ! ..

ـــ حسبتك تعنينى أنا ! ..

ـــ أنت ؟! .. لا يا عزيزى « هنرى » ... أنت العقل بعينه ... أنت أعقل مما ينبغى ! .. آه يا سيدى .. لقد تبين لى أنك أعقل مما كنت أتصور .. هنيئاً لك ! ..

قالتها « سوزى » فى إطراق ، وفى شىء من الغضب المكتوم ، وأطرق « هنرى » أيضاً ، وجعلت يده تعبث ، بدفتر التذاكر على حافة الشباك ، وطال بينهما صمت قطعته ، « كلوتيلد » حارسة المقاصير ، صائحة من جوف مقصورة :

ـــ مسيو هنرى ! .. أنعد مكان « الأوركستر » ؟ ..

فانتهز « هنرى » الفرصة ليخرج من موقفه ، وأسرع إلى قاعة المسرح ، وتوسط صفوف المقاعد وصاح :

ـــ أيتها الحمقاء « كلوتيلد » ! .. الليلة رواية « الأليزيه » ! ... أتريدين « الأرليزيه » بغير موسيقى ؟! .. أعدى محل « الأوركستر » حالاً أيتها الشمطاء ! ..

وعاد السكون إلى المكان ، وأرادت « سوزى » أن تعود إلى تلاوة قصة « لاجارسون » التى كانت تشغل وقتها الخالى ، بقراءتها كلما خفت وطأة العمل ؛ لكن شيئاً فى رأسها حال بينها وبين الكتاب ،

فجعلت تنظر فى فضاء المكان دون أن تثبت بصرها فى شيء بعينه ، وحانت منها نظرة عارضة إلى تمثال « فولتير » الرخامي أمامها فى الردهة ، وعلى شفتيه تلك الابتسامة الساخرة المشهورة ، فحركت أهدابها قليلا وكأنما راعها شيء منه ، لكنها تمالكت ، وهزت كتفها ، وأخرجت من حقيبة اليد بجانبها علبة أنيقة الشكل ومرآة صغيرة ، وجعلت تطلى وجهها الجميل ؛ حتى ظهرت « كلوتيد » تقول فى غضب :

— أسمعت شتائمه ؟ ..

فقالت « سوزى » فى غير اكتراث :

— من ؟ ..

فأجابت العجوز وقد استندت إلى مكنستها :

— « الرئيس » ! .. أما رأيت سوء خلقه اليوم ؟! ... إنه لا ريب قد حدث بينكما شيء يا مدموازيل سوزى ؛ إن خلقه لا يسوء إلا يوم يكون الأمر بينكما ...

فتنهدت « سوزى » تنهداً خفيفاً ، وابتسمت ابتسامة فاترة ، ولم تجب ! ..

* * *

لبث « محسن » فى مجلسه من المقهى الذى أمام الأوديون ، يحتسى

قدحاً من القهوة ممزوجة باللبن ،ويتأمل تلك الأعمدة العظيمة التى يقوم عليها بناء المسرح الفخم ... ولا تبرح عيناه الباب ؛ كأنما هو باب فردوس ، لا يدرى أهو من داخليه ... أم كتب عليه أن يظل دونه من الضالين ! ... ولم يقطع عليه تأمله غير حركة فتى وفتاة من أهل باريس ، يتعانقان خلفه ، ويقبل أحدهما الآخر علانية ؛ كما اعتاد الباريسيون أن يفعلوا غير حافلين بعاذل أو رقيب ! ... فـازور « محسن » عنهما برأسه ؛ غير راض أن تعرض العواطف هـذا العرض ، فى الشوارع والطرقات ؛ فتبتذل وهى التى ينبغى لها أن تحفظ فى الصدور كما تحفظ اللآلئ فى الأصداف ... وبينما « محسن » فى تأمله إذا كف قد وضعت على كاهله ، فالتفت ، فرأى « أندريه » يبتسم له ويقول :

ــ ماذا تصنع هنا أمام الأوديون أيها الفتى الشارد ؟! ...

ــ أنت ؟ ... دائماً أنت ورائى هكذا ! ...

ــ ماذا تفعل هنا ؟ ... أجب وأسرع ! ...

فتردد « محسن » قليلا ، ثم أشار إلى المسرح قائلا :

ــ إنى أتأمل هيكل الفن ..

فغمز « أندريه » بإحدى عينيه وقال :

ــ بل قل هيكل الحب ...

ـ كلاهما واحد .. أحدهما حال فى الآخر ؛ كالنور فى المصباح ! ..،

ـ أهى هنا ؟ ..

ـ هى هنا ، ورواية « الأرليزيه » هنا ... آه ! ...

ما أجملها وما أجمل الرواية ، نثراً وموسيقى ! ... هنا فى هذا الهيكل قد امتزجت صورتها فى نفسى بصدى أنغام « الأنترمتزو » ، ورقصة « الفراندول » ؟ ...

ـ ألم تقدم إليها بعد باقة الزهر أو عطر « الموبيجان » ؟ ...

ـ لا زهر ولا عطر .. إنها أعظم قدراً عندى ، وأجل خطراً من أن أقدم لها شيئاً ، أو أن أوجه إليها كلاماً ! ...

فبدا العجب فى وجه الفرنسى الشاب ، وخيل إليه أنه يسمع ألغازاً وطلاسم لا قبل له بفهمها ، فهز كتفيه مريحاً نفسه :

ـ تلك ولا شك فلسفة شرقية ! ..

ـ وأنت كيف عثرت علىّ ؟ ... وما حضورك هنا الساعة ، والعمل فى المصنع قائم على قدم وساق ؟! ...

ـ لا مصنع اليوم ولا قدم ولا ساق .. ألم تقرأ صحف الظهر ؟ ... قد أضرب العمال فى مصانع « كوربفوا » ، أضربنا جميعاً إلى أن يعدوا بالنظر فى مطالبنا ... وأما العثور عليك ، ومعرفة

مقرك الآن فليس من المعضلات ! ...

وابتسم « أندريه » فى خبث ، ثم مد يده إلى صديقه قائلا :

ـ والآن ، هلم بنا ! ...

فنظر إليه الفتى دهشاً قلقاً :

ـ أين ؟ ...

ـ نحضر اجتماع العمال ...

ـ وما شأنى أنا والعمال ؟ ...

ـ نزهة قصيرة ...

ـ نزهة ؟ ... آه يا سيدى ! ... بعض عطفك وكرمك ! ... أخبرنى بحقك ؛ متى ترحمنى من هذا الذى تسميه : « نزهة قصيرة » ؟ ...

ـ يسرنى دائماً أن تذهب معى ...

ـ وأنا يسرنى دائماً أن تذهب أنت وحدك ... دعنى الآن فيما أنا فيه ... إنى كما تعلم لست من العمال المتعطلين ... إنك لترى أن لدى عملا ...

ـ فى أى مصنع ؟ ...

ـ هنا ! ...

وأشار الفتى بيده إلى المسرح ، فضحك « أندريه » وقال :

ــ أتسمى هذا عملا ؟! .. آه ... أيها العاشق الشرقى الذى ينفق أيامه فى قهوة يحلم ، وحبيبته على بعد خطوتين ! ..

سمع الفتى ذلك من صديقه الفرنسى ، فانتفض قائماً ، وقد لمعت فى رأسه كالبرق صورة من الماضى ؛ فرأى قهوة « الحاج شحاته » فى حى السيدة زينب بالقاهرة ، وذكر جلوس عمه اليوزباشى « سليم » الساعات الطوال ببابها ، شاخصاً إلى دار محبوبته « سنية » ، آملا أن يلمح لون ثوبها الحريرى الأخضر ، خلف « المشربية » ، وأدرك « محسن » لفوره أنه يصنع الآن فى شارع « الأوديون » عين الذى كان يصنع سليم فى شارع سلامة منذ سنوات ... أهى المصادفة ؟ ... أم أن هذا شيء فى دمه ؟ ... لا يدرى ؛ غير أنه يحس قوة ترغمه على الجلوس قرب مكانها ، وأنه يحب هذا القرب لذاته ..

وعاد « محسن » فجلس ، واتسعت حدقتا الفرنسى دهشة وصاح :

ــ ألا تستطيع أن تبرح هذا المكان ؟ ...

ــ إنك ترى بعينيك أنى لا أستطيع ! ...

فأشار « أندريه » إلى « التياترو » بأصبعه :

ــ ولماذا لا تذهب إليها فتفاتحها بما فى نفسك ؟ ...

ــ أأنت مجنون ؟! ..

ـــ أنا المجنون ؟؟! ...

لفظها الفرنسى وهو ينظر إلى « محسن » ، ولا يجد كلمات يصفه بها ، ومضى الفتى يقول :

ـــ يا عزيزى « أندريه » ! ... ما زال فى رأسى قليل من الإدراك ، يكفى لإفهامى على الأقل أن مثل هذا الجمال ، فى شباك مفتوح للجمهور ، لا يمكن أن يبقى حتى الآن فى انتظار قدوم هذا الصعلوك الشارد الذى هو أنا ! ...

ـــ تريد أن تقول إن لها عشاقا ؟ ...

ـــ ألف عاشق وعاشق ، وقد لا يحصون عداً ... كل من حولها يحبها ؛ ذرات الهواء ، وهوام الفضاء ، ونجوم السماء ! ...

ـــ كفى خيالا وشعراً ... تكلم فى الواقع ... هل أخبروك أنها تحب أحدا بعينه ؟ ..

ـــ إنها يا سيدى محبة محبوبة ! ...

ـــ كيف علمت ؟! ...

ـــ بالفراسة ! ...

فنضب معين الصبر من صدر الفرنسى وصاح :

ـــ الفراسة أيها اللكع ؟ ... وهذا بابها ، وهذه هى جالسة ، أكاد أراها من هنا ! .. أقسم إنى لم أر مثل هذا فى حياتى ! ..

فلم يحفل « محسن » لصياحه ، ولم يبد حراكا ؛ غير أنه أرسل نظرة إلى باب المسرح ، وخطر له طيف « سليم » مرة أخرى ، وهو اليوم زوج لإحدى قريباته ، وأب لولدين صغيرين . وقد شغل وظيفة عسكرية فى مصلحة خفر السواحل ، وأصبح ذا جسم ممتلئ و« كرش محترم » ... أما شارباه القائمان فقد هوت بهما الأيام ، واتخذت حياة ذلك الرجل الشكل المألوف فى حياة « الملايين » من هذا النمل البشرى ، وقد ذهبت ساعات جلوسه فى قهوة شحاته ولم يبق لها أثر ظاهر فى حياته ! .. طغى الزمن ببحره الطامى على أحلام الماضى ، واختفت صورة « سنية » من رأس « سليم » ومع ذلك ؛ فهو إن بحث اليوم فى أغوار قلبه عن خير ساعات حياته ، لما وجد أحلى ولا أشهى من تلك اللحظات ، التى كانت تطير هباء فى جلوس طويل ، بين اليأس والرجاء ؛ شاخص الأبصار إلى نافذة سنية ! ... ذلك الانتظار الحلو المر ، انتظار شىء جميل يرجو أن يحدث ولن يحدث ؛ هو كل ما ظفر به قلب « سليم » ، وكل قلب على هذه الأرض ، من إحساسات عليا ، ماذا يهم ما يتم من لقاء بعد ذلك بين حبيبين ؟ ... إن خفقة القلب التى كانت تهز كل كيان « سليم » ، كلما خطف بصره خيال امرأة خلف المشربية ، وذلك الصبر الطويل على القهوة فى انتظار هذا الخيال ؛ هو كل جمال الحب ! ...

واستـرسل « محسن » فى تصوراتـه وتذكاراتـه ، فـنسى « أندريه » ، وأدرك القنوطَ الفرنسى ، فرفع يده فى حركة عصبية :

— لا ! .. حقيقة لا ! ... إنى لا أستطيع أن أنفق عمرى جالساً هكذا ... إن الزمن شيء لا تعرفونه أنتم معشر الشرقيين ، ولا يعنيكم أمره ! ...

— لقد تحررنا منه ! ...

فحملق « أندريه » فى « محسن » ملياً ، ثم صاح :

— آه ، أيها الشرقيون ! ... أأنتم بلهاء أم أنتم حكماء ؟ ... هذا ما يحير ! ...

— تلك عبقريتنا ! ...

الفصل السادس

يروى الجاحظ : أن رجلا دميما ، تزوج أعرابية حسناء ، هامت به ، فسئل فى ذلك فقال : « قرب الوساد ، وطول السواد » ! ...

ذكر « محسن » تلك الكلمة ، وهو جالس يرمق أعمدة « الأوديون » من مكانه بالقهوة ذات صباح ، فاهتز فى كرسيه ولمعت عيناه فرحا ؛ فقد وجد السبيل الذى يسلكه مثله ... إنه يعرف نفسه ؛ فهو كصندوق مقفل غير مطعم بذهب ولا بفضة ، وغير موشى بألوان ولا برسوم ، ولا تبهر هيئته ولا تغر ... ولكن طول الجوار قد يحمل الصادف عنه ، على النظر إليه واستطلاع ما فيه ، وهو إن فعل فلا شك واجد فى قلبه بعض تلك اللآلىء ، التى يبحث عنها الناس ، ولكن كيف يدنو منها دنواً متصلا ، وهو غير قدير على أن يذهب إليها الآن ، ليقرئها السلام ، وكيف يجد « قرب الوساد وطول السواد » مع هذه ؟ ... وهو لا يستطيع أن يظفر من وقتها بخمس دقائق؟ ... وتذكر ــ عند ذاك ــ شارع سلامة بالقاهرة ؛ حيث كان يقطن منذ أعوام إلى جوار « سنية » ... حقاً لو

لم تكن يد القدر قد وضعت مسكنه إلى جانب مسكنها ، لما كان لتلك الفتاة مكان فى حياته يوماً ما ! .. نعم ، لا شىء اليوم يستطيع أن يخرجه من هذا اليأس غير قرب السكن والجوار « طول سواد الليل ، وبياض النهار » ! .. ولكنه لا يعرف أين تسكن ؟ .. وكيف تسكن ؟ .. أبمفردها ؟ ... هذا هو الحلم الذهبى ! .. لا ، هذا مستحيل ؛ إن القدر لأقسى من أن يظفره بهذا الحلم .. إنها لا شك تقطن مع أهلها ! .. ومع ذلك ، ماذا يعنيه من هذا الأمر ؟ ... إنه راض بالقليل ؛ يكفيه منها مجرد الشعور فى كل حين ، أنها هى جارته ! .. بقى عليه أن يعرف مقر سكنها ، وهذا ميسور ؛ ما عليه إلا أن يتبع خطاها ، وهى خارجة من المسرح فى المساء ! ... هنا وثب « محسن » وكأن الأزمة قد انفرجت ؛ فهو منذ اليوم ، لن يتخذ القهوة مطاراً لخيالاته المحلقة ، بلا جدوى ، فوق هذا المسرح ! ... ولكنه سينشط ، ويسير فى طريق الأمل ، على هدى من أمره ! ..

وفرك يديه ليدفئهما من البرد ، ومسح معطفه وقبعته من رذاذ المطر الذى أصابهما ، وقام يمشى فى الطرقات ، يقتل النهار فى انتظار المساء ، متصفحاً : تارة وجوه حوانيت الكتب ، وتارة « إعلانات » المسارح الغنائية على الحيطان ، وحفلات « الموسيقى السانفونية » ؛ إنه حتى اليوم لم يكن قد عرف موسيقى « بتهوفن » معرفة كاملة ؛

فإن الحفلات السانفونية القليلة التى حضرها لم تعقد بعد أسباب الألفة بينه وبين ذلك القلب الكبير ، ولم يقنط الفتى ! ... فهو يعلم أن الآلهة لا تكشف سرها لأول قادم ، وأن الملوك والعظماء لا يظهرون لكل من طرق أبوابهم ؛ — إنما ينبغى الصبر الطويل على الجلوس بأعتاب الهياكل وأبواب القصور ، والتوسل بالرغبة الصادقة فى الوصول ؛ فإن الصبر فى الفن وفى الحب هو مفتاح الطريق ! ..

ووقع نظر « محسن » على برنامج حفلة موسيقية تعزف فيها السمفونية الخامسة « لبيتهوفن » ، تبتدئ بعد الظهر ، وتنتهى فى المساء الباكر ؛ فما تردد وأزمع الذهاب .. وجاء الظهر فتغدى فى مطعم صغير ، ثم أسرع إلى مسرح « شاتليه » ؛ ليصغى إلى ذلك الرجل الذى أصغت إليه أجيال من البشر ! ... هنالك وجد الفتى المسرح يعج بالناس ، فاتخذ له مجلسا متواضعاً فى أعلا المكان ، وجعل يشاهد ، من عَلٍ ، ذلك البحر العجاج من نساء ورجال فى القاعة والشرفات ! ... ولم يمض قليل حتى ظهر الموسيقى « جابرييل بيرنيه » رئيس الفرقة : بعصاه الصغيرة ، ولحيته البيضاء القصيرة ! ... فسكن الضجيج فجأة وارتفعت الأيدى بالتصفيق ، ثم خيم على المكان سكون قدسى كسكون المعابد ، وشعر « محسن » بالخشوع الذى خامره فى الكنيسة ذلك اليوم ، وتحركت يد الأستاذ بالعصا ، فإذا « بيتهوفن »

يتكلم بلغته السماوية ، قوية أول الأمر فى ذلك الـ « أليجرو » الجليل حلوة بعد ذلك ، كأنها أصوات الملائكة الصافية فى ذلك الـ « أندانت » الهادئ ، ثم فياضة بالسرور الداخلى : من ذلك الـ « سكرتزو » المشرق ، إلى أن تنتهى منه إلى ذلك الفرح المتفجر : من أضواء أنغام الـ « برستو » الأخير ! ..

نعم ، إن هو إلا وحى السماء يتكلم ، بمختلف المشاعر العظيمة التى رفعت الإنسانية إلى هذه المرتبة !... لقد بدأ « محسن » يدرك ويحس حقيقة تلك الكلمة التى قرأها فى « نيتشه » : « كل عواطف البشرية السامية فى السنفونية الخامسة ! ... »

وترك « محسن » المسرح وهو شارد اللب شأنه شأن بقية الناس ! .. ما زالت نفسه هائمة فى ذلك الجو العلوى ! .. وخرج إلى الطريق ، فاستقبله الهواء البارد ضارباً وجهه ، فعادت فى الحال إليه نفسه ، ونظر حوله فإذا الظلام ينبئه أن الموعد قد قرب ، فأسرع فى المشى إلى « الأوديون » ، ووقف ببابه مستخفياً وراء عمود يرقب خروج الحسناء ! ..

دقت الساعة العاشرة ، فأقفل شباك التذاكر ، وخرجت الفاتنة تتهادى ؛ كالغزال الذى وصفه إسحق الموصلى بقوله :

شادن لم ير العـراق وفيـه
مع ظرف العراق دلّ الحجـاز

وعرف « محسن » هذا الشادن من مشيته ذات الدل ، قبل أن يرى فى الظلام وجهه ؛ فاختلج قلبه و لم يتحرك ، وابتعدت صاحبته .. وهمست إليه نفسه : أن انطلق ؛ خشية أن تختفى عن نظرك ! .. فأسرع خلفها وهو كالخائف ، إلى أن بلغت سلم « المترو » الأرضى ، فنزلت إلى المحطة بعد أن أبرزت لعامل الباب تذكرة من دفتر معها ، وما أن وصل « محسن » واتجه إلى شباك التذكر ، وابتاع تذكرة ، ودفع قطعة فضية ، واسترجع بقيتها ؛ حتى كان القطار قد أقبل ومضى بالفتاة ، وهو ينظر فاغراً فاه خائب الأمل ! .. وثاب إلى رشده بعد قليل ، فقال لنفسه : « لم أحسب حساب دفتر التذاكر الذى معها ! .. بالطبع ينبغى أن يكون مع مثلها هذا الدفتر ، وهى التى تقطع عين الطريق ، آتية غادية مرتين فى اليوم ! .. لا بأس ! .. لا فائدة من الحزن والندم؛ غداً أعيد الكرة بعد أن أعد عدتى ! .. وجاء الغد ، فحصل على دفتر تذاكر فى الدرجة الثانية ، وانتظرها ثم اقتفى أثرها حتى المحطة ، وجاء قطار « المترو » ، فاندفع هو إلى عربة فى الدرجة الثانية ، ونظر خلفه فإذا هى تصعد إلى عربة فى الدرجة الأولى ... وسار القطار ولا اتصال بين العربات ... والمحطات كثيرة

ولم يعرف فى أيتها نزلت الفتاة ! ... وضاع أثرها أيضاً منه فى هذه المرة ، فسخط وثار على نفسه صائحاً : إنها الخيبة والبله بعينه ! .. ألا أستطيع أن أقتفى أثر إنسان عشرة أمتار ؟! ... ثم هدأ وابتسم وقال كالحالم :

« ما كنت أعتقد أن مهنة البوليس السرى بهذه الصعوبة » ! ..

غير أن هذه التجارب الخائبة قد نفعت الفتى فى اليوم الثالث ، فقد احتاط للأمر من كل جانب ، ولم يغفل عن الفتاة طرفة عين ، وصعد معها فى عربة واحدة ، وجعل يراقبها عن كثب دون أن يظهر لعينيها حتى بلغ « المترو » محطة « بورت دى ليلاس » فنزلت ، فأسرع ونزل خلفها ! ... وسارت فى طريق طويل ، تنبت على جانبيه أشجار الزيزفون والكستناء ، فتابعها متوارياً ، بين لحظة وأخرى ، خلف جذوع الأشجار ، إلى أن بلغت فندقاً يدعى « فندق زهرة الأكاسيا » فدخلت ...

لم يفعل « محسن » شيئاً بعد ذلك ، غير أنه عاد أدراجه وهو لا يمشى على الأرض ... ولكنه يطير راقص القلب ؛ فقد عرف منزلها ! ....

وفى صباح الغد نهض « محسن » مبكراً ، وفتح حقائبه ، وحشر فيها ثيابه وكتبه حشراً ، وودع المرأة العجوز الدهشة على عجل ! ...

وأعطاها رسالة سريعة ؛ كي تسلمها إلى « أندريه » وزوجتـه ، ووضع أمتعته فى « تاكسى » ، وهو يقول للمرأة العجوز :

ـــ قبلى عنى الصغير « جانو » ! ... غداً يخبرك « أندريه » عن سر هذا كله .. إلى اللقاء ! ..

والتفت إلى سائق السيارة وهمس : « إلى بورت دى ليلاس » فندق « زهرة الأكاسيا » ! ...

وما كادت تختفى السيارة حتى ثابت العجوز إلى رشدها ، وقالت متنهدة :

ـــ هذا الذى كنا نحسبه عاقلا !؟ ...

* * *

كانت السيارة تسابق الريح ، وقلب « محسن » يسابق السيارة وهو كأنه قد ظفر بإيوان كسرى ! ... ما كل هذا الفرح ؟ ... ألأنه رآها تدخل فندقاً ؟! ... وإذا ظهر بعد هذا كله أنها لاتقطن هذا النزل ، وأنها ذهبت زائرة ؛ أما كان ينبغى له أن يتريث ، ويستوثق من الأمر ، قبل هذا الركض الجنونى بأمتعته ؟! ...

هنا اصفر وجهه قليلا ، وخشى أن يكون قد فقد أثرها أيضاً هذه المرة ؛ غير أنه لم ير إلا أن يمعن فى السير ، وأن ينزل هذا الفندق ؛ فقد فات أوان الرجوع ، ووقفت السيارة بباب الفندق وأنزلت الأمتعة ،

وقادته المديرة إلى الحجرة رقم ٤٨ فى الطابق الخامس .

وكان كل ما يطمع فيه « محسن » وقتئذ ، أن يعرف هل تقطن هنا حقاً صاحبته ؟ ... وفى أى طابق وأى حجرة ؟ ... ولكن كيف يوجه السؤال وهو لا يعرف اسمها ؟ ... ودخل الفتى حجرته ، فألفاها صغيرة نظيفة ، ذات نافذة تطل على فضاء ؛ — فهذا الحى هو طرف قصى من أطراف باريس ، باب من أبوابها — كما ألفى مطبخاً صغيراً ملحقاً بالحجرة ، معداً بأحدث معدات تهيئة الطعام ، من موقد وفرن صغير ، يشعل بغاز يأتى فى أنابيب ، إلى أدوات لشواء اللحم ، وخزائن لوضع الأوانى ، وحوض ماء ؛ فهذا الفندق معد لسكن الأسر الفقيرة ، كل حجرة بملحقها معدة ؛ كأنها مسكن مستقل ! ...

ولبث « محسن » فى حجرته ذلك اليوم ، يشتغل بإخراج أمتعته وكتبه ، وتنظيم أمره فى تلك الحجرة ، وهو يقول فرحاً : « لقد أصبح لى مطبخ ، إنى سأحتاج إليه من غير شك أيام العسر والإفلاس ؛ فإن أكلة فى المطعم تنفق على هذا المطبخ البسيط ثلاثة أيام ! ... »

* * *

نام « محسن » ليلته الأولى فى ذلك المقر الجديد نوماً ثقيلا ؛ فلقد

قرأ البارحة كثيراً وتأمل كثيراً ... وهو — إذ يفعل ذلك — لا يستيقظ دائما قبل التاسعة ، ولكنه فى هذا الصباح نهض قبل السادسة وثباً من فراشه على صوت فاتن ، يغنى كأنه طائر جميل هذه الأغنية المشهورة فى رواية « كارمن » :

« الحب طفل بوهيمى ! ..
لا يعرف أبداً قانوناً ! ...

فأسرع إلى النافذة ، وبحث عن الصوت ؛ فإذا فتاته فى « روب دى شامبر » نسائى من الحرير الأبيض ، تنظم « أزهار البنفسج » فى أصص على حافة النافذة التى تحت نافذته ! ... هى ؟ .. هنا ؟ .. تعيش فى حجرة أسفل حجرته ؟! ... وثب قلب « محسن » ، ونبض نبضات ؛ خيل إليه أنها سمعتها ولكنها مضت فى غنائها :

« إذا لم تحبنى فأنا أحبك ،
وإذا أحببتك فالويل لك ! ... »

الفصل السابع

أسرع « محسن » وارتدى ثيابه ، ووقف بباب الفندق ينتظر خروجها ؛ فهو قد أدرك أنها لا بد خارجة بعد قليل ! ... وهو يعلم أن شباك تذاكر « الأوديون » يفتح فى الساعة الحادية عشرة ، ولم يخب ظنه ؛ فقد سمع صوتها بعد لحظة وهى تنزل السلم سائلة صاحبة النزل عن بريد الصباح ، فاستعد وضبط أعصابه ، وما كادت تدنو منه حتى تقدم إليها ، ورفع قبعته السوداء ، فرفعت أهدابها الجميلة وسددت إليه عينيها الفاروزيتين ، فارتج عليه ، ولم يعرف كيف يبدأ الكلام ! ... وخيل إلى الفتاة أنها رأت هذا المعطف ، وهذه القبعة السوداء ، من قبل ؛ وبدا على وجهها أنها تذكرته ! .. فما أن رأى « محسن » منها ذلك حتى قال من فوره :

ــ نعم ، أنا هو ! ...

فابتسمت قليلا ؛ غير أنها قالت :

ــ هو من ؟ ..

فخجل الفتى وارتبك ، ورأت الفتاة خشونة ردها عليه

فاستدركت :

ـــ إن لم أخطئ الظن ، فأنت يا سيدى « زبونى » !! ...

ـــ نعم ، أنا هو « زبونك » الدائم !! .. ولى الشرف أن أكون كذلك ..

ـــ وما جاء بك إلى هذا الحى الذى لا يعرفه الأجانب ؟ ... معذرة من فضولى !!! ...

ـــ فضولك يا سيدتى هو كل ما أرجو وما أحب ... جاء بى إلى هذا الحى ... الفضول ! ...

فابتسمت وقالت :

ـــ أيضاً !! ..

ـــ بل شىء أكبر جداً من هذا ...

واحمر وجهه قليلا ، وخشى أن يكون الموقف قد طال ، وأنه قد قطع عليها السير ، فأبدى لها أسفه سريعاً ... وتنحى عن طريقها واستأذنها فى أن يسير إلى جانبها قليلا حتى يتم حديثه ... فأذنت له ومشيا إلى محطة « المترو » وهو يقول :

ـــ إنى جئت إليك أحجز محلا لمشاهدة قصة هذا المساء ! ...

ـــ شباك التذاكر ليس هنا ! ... إنه هناك فى المسرح ! ...

ـــ وما يمنع أن يكون فى أى مكان تحلين فيه ؟! ... هو الذى يجب

أن يتبعك ! .. ككل شيء وكل إنسان ! ...

فالتفتت إليه تستجلي أمره ؛ وكأنما أدركت قليلا حقيقة غرضه :

ـــ وكيف عرفت أني أقطن هذا الحي ، وهذا الفندق ؟ ...

ـــ عجباً ! .. أتقطنين هذا الحي ، وهذا الفندق ؟! ... إذن أنت تقطنين هذا الحي وهذا الفندق ! ...

فنظرت إليه فاحصة ؛ كمن ينظر إلى مخلوق عجيب ، ولكنه مضى يقول :

ـــ وافرحتاه ! .. أنا أيضاً أقطن هذا الحي ، وهذا الفندق ! ...

فقالت في لهجة المستريب :

ـــ منذ زمن طويل ؟! ...

ـــ منذ ... لست أدري ... نعم ، منذ زمن طويل ! ...

فلم تنبس الفتاة ، وساد بينهما صمت عميق ... وشعر « محسن » ببرد يكتنف الموقف ورأى محطة « المترو » وقد أصبحت منهما على قيد خطوات ، وخشي أن تضطره هي فجأة إلى الافتراق عنها ، ولم يقل بعد شيئا يثبت إلى الأرض هذه الصلة الطائرة ... فاندفع يقول في غير تبصر :

ـــ ما أجمل هذا الصباح !... لقد استيقظت على أغنية « كارمن » تتصاعد من نافذة تحت نافذتي ... لكن ... بأي صوت وأي

غناء !! ...

وكأن الفتاة لم تسمع شيئا ؛ فقد لزمت الصمت ، وكانت قد دنت من سلم « المترو » الأرضى فالتفتت إلى محسن ومدت يدها إليه قائلة — فى صوت كله تحفظ ، كأنها تخاطب شخصاً لا تعرفه ، ولا تحرص على أن تعرفه :

— عم صباحا يا سيدى ! ...

وهبطت السلم ، واختفت فى لمح البصر ، تاركة الفتى فى مكانه ، كتمثال من الرخام قد غطاه الجليد ! ...

* * *

ثاب « محسن » إلى رشده ولكن الدهش لم يفارقه ، لماذا تركته على هذا النحو ؟! ... أكان مسرفاً فى حديثه ؟ .. ولكن لماذا ؟ ... وماذا كان يجب عليه إذن أن يقول ؟! ...

واسترسل فى التفكير برهة ، يقلب الأمر على وجوهه ... إلى أن انتهى به حديث النفس إلى شاطئ هادئ : الرجاء ، والرضى بما حدث حتى اليوم ، فإن حياته منذ اليوم إلى جوارها شىء ليس بالقليل ، بل إنه الآن يستطيع أن يعرف عنها الكثير ... يستطيع أن يعرف اسمها على الأقل ، وأن يعرف مع مَن تعيش هنا ! ... ولم يفكر « محسن » أكثر من ذلك ، فقد جرى لساعته إلى الفندق ، وصعد إلى

الطابق الرابع ، وبحث عن الحجرة التى تقع أسفل حجرته ، وقرأ رقمها : « ٣٨ » ... ثم نزل فى الحال إلى صاحبة الفندق ، فحياها فى ابتسامة رقيقة ، وحرك شفتيه متردداً لا يدرى بعد ، كيف يصل إلى غرضه دون أن يبدو عليه شىء ، ولكن المرأة ابتدرته :

— أراض عن حجرتك يا سيدى ؟ ...

ففتح هذا السؤال الطريق للفتى ، وقال :

— لا بأس بها ... وإن كنت أفضل الحجرة السفلى ؟ ...

— السفلى ! ... فى الطابق الرابع ؟ ... إنها مشغولة يا سيدى ! ...

— تشغلها أسرة ؟! ...

— كلا يا سيدى ... بل آنسة بمفردها ! ...

فأخفى الفتى سروراً كاد يشرق به وجهه :

— بمفردها ؟ ...

ثم استطرد فى الحال :

— نعم ! ... إن الحرب الكبرى قد جعلت الفتاة هنا كالشاب ، تسعى وراء رزقها بمفردها ! ... نعم ! ... هذه الآنسة ، إن صدق ظنى ؛ فهى عاملة شباك التذاكر بمسرح الأوديون ! ...

— صدق ظنك يا سيدى ! ...

ـــ نعم ! ... إنى أختلف إلى الأوديون كثيراً ... هى ، إن صدقت ذاكرتى : « مدموازيل ... مارى » ؟! ...

فابتسمت المرأة ابتسامة ، لا أحد يدرى : إن كانت تنم عن خبث ومكر وإدراك ، أو أنها لا تنم إلا عن بَساطة وملاطفة :

ـــ خانتك ذاكرتك هذه المرة يا سيدى ؛ إنها تدعى « مدموازيل سوزى ديبون » ! ...

ـــ « سوزى » ؟! ..

انزلق هذا اللفظ من بين شفتيه ، وهو فى نشوة من فرح داخلى يشبه الذهول ، وتنبه من فوره ، وضبط نفسه ، والتفت إلى المرأة وقال :

ـــ أشكرك يا سيدتى على هذا الوقت الذى أضعته عليك ... أشكرك ! ...

ثم تركها وخرج إلى الطريق سريعا يهمس :

« سوزى »! ...

قضى « محسن » بقية الصباح جالساً على مقعد فى حديقة « لوكسمبرج » سارحاً فى أحلامه الكثيرة ... لقد كان يأتى إلى هذا المكان بعد ظهر الأيام الأولى من مجيئه إلى باريس ، وكان يصحبه مواطن أكبر منه سِناً ... وكان هذا شيخاً يدرس فى الأزهر ، وقد

جاء « باريس » ليكمل دراسته العليا — ليس كما كان يدرس « محسن » الحقوق والآداب — ولكن لدراسة الدين المقارن ...

لقد كان حراً طليقاً ... يحب فى باريس النساء ، وكان عقله لا يتفتح لأى أدب ، ما عدا النصوص الدينية فى الكتب المقدسة ، وحتى هذه ما كان يدرك كل معانيها الخفية ...

وكان من عادته أن يتنزه فى حدائق « لوكسمبرج » للتطلع إلى سيقان السيدات الجميلات ..

وفى الليلة التى كان يزمع فيها العودة إلى مصر ، قص على « محسن » قصة مسلية ، قال :

— تعرفت يوماً على شيخ ذى لحية بيضاء فى الحديقة ، جاء مثلى يتأمل السيقان الجميلة ، وكان اسمه « أناتول » ... وكنا نتقابل عصر كل يوم على نفس المقعد ، ونتفرج معاً على نفس الشىء ، وقد جمع بيننا غرض واحد ، وظروف واحدة ...

وفى عصر يوم التقيت بصديقى « أناتول » فى شارع « سان ميشيل » فسرنا معاً ، وقد تشابكت الأذرع بيننا فى صداقة ومحبة ، ثم اتجهنا إلى الحدائق ... وكان فى ذلك الوقت ينعقد مؤتمر الصلح فى « فرساى » ، وكانت مصر قد أرسلت وفدها الوطنى إلى باريس ليسمع صوتها ، ومطالبتها بالاستقلال ...

وما إن وصل الوفد إلى باريس حتى وجد كل الأبواب موصدة فى وجهه ، ولم تقبل أى جريدة أن تكتب سطراً واحداً عن مهمة الوفد ، وكاد يفشل فى مهمته :

وبينما كان واحد من رجال الوفد يتمشى صدفة فى شارع « سان ميشيل » حتى رآنى وأنا ممسك بذراع الشيخ ، فعرفنى على التو ، وكانت فرحته لا تقاس ، وكأنى هبطت عليه من السماء ...

قال :

— أتعرف جيداً هذا السيد ... ؟!

قلت :

— أى سيد .. هذا العجوز الذى يصاحبنى ... ؟!

قال :

— نعم .. هذا أكبر كاتب فى باريس ...

قلت :

— هذا المخرف ... ؟!

إنه « أناتول فرانس » بعينه ... بلحمه ، ودمه ... ألم تسمع قط الناس يتكلمون عن « أناتول فرانس » ... ؟

— لا ...

— يا غبى ... ! يكفينا منه سطران وننجح فى مهمتنا ...

ــ ماذا ... من ذلك العجوز أناتول ... ؟

ــ حاول أن تقدمنى إليه ، فإنك بذلك تقدم خدمه للوطن ...

ولبث لحظة دهشاً فاغر الفم .. ثم أخذت أبحث عن صديقى « أناتول » .. وأخيراً عثرت عليه فى مقعده المعتاد ، واقتربت منه ، ولأول مرة تكلمت معه فى شىء من الاحتشام قائلا :

ــ سيدى .. أنت رجل عظيم ... أنت أكبر كاتب فى فرنسا .. اغفر لى غباوتى ...

دهش « أناتول فرانس » فى بادئ الأمر ، ثم قام ، وعلامات الحزن بادية عليه ... لقد كشف سره ذلك الدخيل الذى التقى بنا فى الطريق ، ثم مدّ لى يده قائلا :

ــ يا للخسارة ... لقد انتهت صداقتنا ...

وتركنى لأسير وحيداً ...

و لم تمض بضعة شهور حتى كان « أناتول فرانس » يكتب مقدمة لكتاب « صوت مصر » نشره « فكتور مرجيت » يدافع فيها عن مصر واستقلالها ...

الفصل الثامن

أنفق الفتى ما تبقى من ذلك الضحى هائماً على وجهه ، فى طرقات ذلك الحى ، جاعلا من شأنه البحث عن مطعم رخيص ، يلجأ إليه فى أيام الضنك ، وهى كل الأيام ، عدا اليوم الأول والثانى من كل شهر ... وقد وجد ضالته فى شارع « مونيلموتان » ! . إنها شبه « حانة » توسم فيها النظافة مع قلة النفقة ؛ فقد قرأ فى لوحة من ورق « الكرتون » معلقة على بابها ، أن ثمن الأكله الكاملة مع زجاجة من النبيذ خمسة فرنكات بالتمام ، وكان الظهر قد أقبل ؛ وأحس « محسن » الجوع ، فدخل ذلك المطعم ، واتخذ له مجلسا فى أحد الأركان ، وجاء الغلام ، فطلب إليه شريحة من لحم الثور ، مشوية مع البطاطس ، واعتدل فى جلسته مطمئناً يفحص وجوه الحاضرين .. إنهم جميعاً من طبقة العمال ، أولئك الذين ينبذون الشوكة والسكين ويقطعون الخبز واللحم بمدية الجيب ! ..

ولكن الفتى لم يأنف من تلك السواعد العارية ، والجباه المتصببة عرقاً ، والثياب التى تقطر بؤساً فـ « محسن » لا يشعر دائماً أنه فى

مكانه ؛ إلا بين أمثال هؤلاء ، وهو يوم يدفعه الرخاءإلى مطعم فاخر ؛ فإنه يدخله دائماً خائفاً كالغريب ، وجعل الفتى يقضم رغيفه قضما خفيفاً فى انتظار الغداء ، ويصغى فى أعماق نفسه إلى تلك الرباعية من رباعيات ، « عمر الخيام » :

إذا أردت أن تعرف الصفاء والسلام ... فاحدب على تعساء الحياة ، أولئك الضعفاء الفقراء الذين يرتعدون فى شقائهم ، عندئذ تظفر بالسعادة ! ...

نعم إنه فعلا يجد فى نفسه الآن شيئاً من تلك السعادة الهادئة الصافية ، فى هذا المكان المتواضع ، وسمع حواراً على مقربة منه ؛ بين صاحب المطعم البدين وبين عامل من العمال شاحب الوجه حاد النظرات :

ــ لن أتناول اليوم لحمك ؛ إنى مريض ! ..

فقال صاحب الحان مشفقاً :

ــ نعم ! .. أرى ذلك .. إنك تعيش وحدك فيما أعلم يا مسيو « إيفان » ! ..

ــ إنى دائماً وحدى فى الحياة ! ..

هذه العبارة الأخيرة استرعت التفات « محسن » ، لا لأنها ذات نغم حزين ؛ بل لأن الفتى كان يتصور أنه ، هو وحده ، الذى يحيا

دائماً وحده فى الحياة .. إنه يعلم أن المعتزلة اليوم قليل ؛ ولكم يشعر بحب وتقدير لأولئك الذين لا تطيب لهم السكنى إلا داخل أنفسهم ؛ ذلك أن قليلا من الناس من يملك نفساً رحبة غنية يستطيع أن يعيش فيها ، وأن يستغنى بها عن العالم الخارجى .. إنه يعتقد دائماً أن الزاهدين الحقيقيين ليسوا إلا أناساً ، لهم نفوس كالفراديس ، تشقها الأنهار ، وتنيرها الشموس ، وتتلألأ فيها الكنوز ؛ فهى عالم من الفتنة والسحر ، لا نهاية لبدائعه وأسراره ! ...

وأبطأ طبق الحساء على جاره العامل المريض ، فأبصره قد أخرج من جيبه كتاباً ، جعل يلتهم صفحاته بدل الطعام ، وود « محسن » لو عرف عنوان الكتاب ! .. ودفعه حب الاستطلاع إلى أن يميل بجسمه ويختلس النظر ، ففاجأته عين الرجل ، فارتبك الفتى وأشار إلى الكتاب :

ـــ معذرة هذا الفضول منى ! .. إنى أحب الكتب ، لا شك أنه كتاب لذيذ ...

فأرسل إليه الرجل نظرات عميقة ، ولم يقل شيئاً ، لكنه مد يده ، ورأى الفتى العنوان على الغلاف ، فاستطاع « محسن » أن يقرأ :

« رأس المال » : كارل ماركس ! ..

لم يمض النهار حتى نشأت صداقة وديعة بين « محسن » وذلك

العامل الفقير ، وقد أنس أحدهما إلى الآخر ؛ كما يأنس الغريب إلى الغريب ، وهو الواقع ... فهذا الرجل روسى ، ترك بلاده منذ بضعة أعوام ، وهو أيضا من أولئك الذين يعيشون على القراءة والتفكير والوحدة ، وقد دعا الفتى إلى حجرته الصغيرة التى يقطنها فى إحدى دور العمال فرأى « محسن » الكتب مكدسة فى كل مكان ، ولم يستطلع « محسن » شيئاً عن دخيلة الرجل ، لكنه أحس أن الرجل قد فرح بمعرفته فرحاً عميقاً ؛ فقد قال وهو يعد له الشاى ، على موقد فى أحد الأركان :

— لكم أشعر أن وطأة مرضى قد خفت قليلا منذ لقائنا ، لست أدرى لماذا ؟ ...

وقدم للفتى قدح الشاى ، وجلس هو على صندوق قديم من الخشب الأبيض ؛ فقد أكرم ضيفه بالكرسى الوحيد فى الحجرة. ورشف « محسن » رشفة وهو يقول :

— وأنت يا مسيو « إيفانوفتش » ألا تحب الشاى ؟ ..

— إنى أفضل جرعة من « الفودكا » ... آه ... إن هذا الشراب مع « تولستوى » هما كل ما أحب الآن من الروسيا ! ...

ولمح « محسن » بعض المرارة فى كلام الرجل ، فقال له فى سذاجة :

ـــ كيف ذلك ؟ .. إن الروسيا الآن هى جنة الفقراء ! ...

فأجابه الرجل كالمخاطب لنفسه :

ـــ أتظن ؟.. إن جنة الفقراء لن تكون على هذه الأرض ! ...

وصمت الرجل قليلا ، ثم قام إلى زجاجة « الفودكا » فتناول منها جرعة وهو يقول :

ـــ أنت أيضاً ممن يعتقدون فى هذه الخرافة : جنة الفقراء ؟! ... إنى فكرت فى أمرها كثيراً ، ومن ذا الذى لم يفكر فيها ؟ .. تلك مشكلة الدنيا التى لم تحل :

« وجود أغنياء وفقراء وسعداء وتعساء على هذه الأرض » ! ... من أجل هذه المشكلة وحدها ظهرت الرسل والأنبياء ! ..

ـــ يا مسيو « إيفان » ... لست أرى رأيك فى أن المشكلة لم تحل ! ... إن الأنبياء قد جاءوا من السماء بخير الحلول ! ..

فتفكر الرجل قليلا ، ثم قال كالمخاطب لنفسه :

ـــ أنبياؤكم أنتم ؟! ... نعم هذا من الجائز ! ... إن الشرق قد حل المعضلة فى يوما ما ... هذا لا ريب فيه ؛ إن إنبياء الشرق قد فهموا أن المساواة لا يمكن أن تقوم على هذه الأرض ، وأنه ليس فى مقدورهم تقسيم مملكة الأرض ، بين الأغنياء والفقراء ؛ ـــ فأدخلوا فى القسمة « مملكة السماء » ، وجعلوا أساس التوزيع بين الناس « الأرض

والسماء » معاً : فمن حرم الحظ فى جنة الأرض ، فحقه محفوظ فى جنة السماء ! .. هذا جميل ! ... ولو استمرت هذه المبادىء ، وبقيت هذه العقائد حتى اليوم ، لما غلى العالم كله فى هذا الأتون المضطرم ، ولكن « الغرب » أراد هو أيضاً أن يكون له أنبياؤه « الذين يعالجون المشكلة على ضوء جديد » وكان هذا الضوء منبعثاً هذه المرة ، من باطن الأرض ، لا آتيا من أعالى السماء ... هو ضوء العلم الحديث ؛ فجاء نبينا « كارل ماركس » ، ومعه إنجيله الأرضى : « رأس المال » ، وأراد أن يحقق العدل على هذه الأرض ، فقسم « الأرض » وحدها بين الناس ونسى « السماء » فماذا حدث ؟ .. حدث أن أمسك الناس بعضهم برقاب بعض ، ووقعت المجزرة بين الطبقات تهافتاً على « هذه الأرض » !!..

تأمل « محسن » قليلا هذا الكلام ، ثم قال كالمخاطب لنفسه :
كمن يلقى تفاحة بين أطفال يتلمظون ! ...

ــ لقد ألقى قنبلة « المادية والبغضاء واللهفة والعجلة » بين الناس ، يوم أفهم الناس أن ليس هنالك غير « الأرض » ـــ يوم أخرج « السماء » من الحساب ؛ لأن علم الاقتصاد الحديث لا يعرف السماء ! ... أما أنبياء الشرق فقد ألقوا زهرة « الصبر » والأمل فى النفوس ، يوم قالوا للناس : « لا تتهالكوا على الأرض ؛ ليست

الأرض كل شيء ! ... إن هنالك شيئاً آخر غير « الأرض » سيكون لكم شيء آخر يدخل فى « التوزيع » ! ... إن الإنسان لا يحيا من أجل الخبز ، كما أنه لا يعيش من أجل الخبز وحده ... آه !... إن أنبياء الشرق هم العباقرة حقا !! ..

وصمت الرجل قليلا ، ثم مضى يقول :

ـ إن روح « المسيحية » ، كما نبعت فى الشرق ، هى : المحبة ، والمثل الأعلى . وروح « الإسلام » : الإيمان والنظام . ومسيحية اليوم الجديدة فى الغرب ، هى : « الماركسية » وهى كذلك لها مثلها الأعلى :

ـ لا فى محبة الناس بعضهم بعضاً ، وتبشير الفقراء « بمملكة السماء » وحضهم على إعطاء ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ؛ ـ بل بإغرائهم بمملكة ، تقام على أنقاض طبقة ، وأشلاء طبقة ، ونصحهم بالهجوم على قيصر ، وأخذ ما لقيصر ! .. وإن « إنجيل » هذا الدين : كتاب « رأس المال » تجد أيضاً فى بعض صفحاته تنبؤات مخيفة ؛ كتنبؤات « يوحنا » فى رؤياه ؛ ـ ففيه توعد بانهيار هذا العالم ، وحلول عالم آخر قوامه العمال وحدهم ! ... أى أجسام تسير بغير رءوس فوق المناكب ؟! ... ياله من حلم مخيف ! ..

أما « إسلام » العصر الحديث فى الغرب : فهى « الفاشية » ،

وهى كذلك لها طابع الإيمان والنظام ! ... إيمان لا بالله ، بل « بزعيم » من البشر ونظام لا يؤدى إلى التوازن الاجتماعى بالتواضع والزكاة ؛ — إنما هو نظام فرضته يد الإرهاب ؛ ليؤدى إلى مطامع الاستعمار ، والوثوب على الضعيف من الشعوب ! ... ولهذا الدين أيضاً « كتابه » وخطبه « المنبرية » الملتهبة ، لا بحرارة عقيدة سماوية ، ولكن بحرارة قوة حيوانية ، وشراهة دموية ! ... آه أيها الصديق ... تلك هى الديانات التى استطاع الغرب أن يخرجها للناس ؛ — يوم أراد أن يزاحم الشرق ويخرج للعالم أدياناً ! ...

فرفع « محسن » رأسه بعد إطراق طويل ، ثم قال :

— يدهشنى منك هذا القول يا مسيو « إيفان » ، وأنت من العمال ؟ ...

— نعم ؛ أنا من العمال ، ومن الفقراء ... لكن ، لى من سوء الحظ رأس يفكر ؛ إنى أعرف أن وعود أديان « الغرب » الجديد كلها ... إن هى إلا تغرير بالعمال والفقراء ... إن « الماركسية » و« الفاشستية » قد أخذتا عن أديان « الشرق » طرقها وأساليبها ، وفهمتا جيداً أن كل خطة النبى هى استمالة الساخطين والمتذمرين والمعوزين ، وهم الكثرة الغالبة ! .. هكذا فعل « عيسى » و« محمد » ! ... هل تبعهما ، أول الأمر ، غير العبيد

والأرقاء والفقراء والضعفاء ؟ ... ذلك أن طبقة الراضين والموسرين ليست فى حاجة إلى أن تتبع أحداً ! ... وهى مع ذلك قلة نادرة ، وسط خضم الدهماء ؛ فالدهماء هم سند الدين ، وهم القوة فى كف النبى ! ... لقد أدرك ذلك جيداً أنبياء أوروبا فى العصر الحديث ودرسوا « Technique » النبوة على أيدى الأساتذة الشرقيين ، فبنوا كل شيء على أساس واحد : « الدهماء » ! ... وجعلوا يتنافسون فى إرضاء هذه الكتل الآدمية بالوعود : وعود واقعية قريبة الأجل ، وهنا كل غباء هؤلاء الأنبياء » ! .. إن التنافس بين الدينين ليبدو لى شديد الخطر ! ... وإنى لأتنبأ لك ، منذ الآن ، بوقوع نوع من « الحروب » بين « الماركسية »و« الفاشستية » تحشد فيها الدهماء ضد الدهماء ، وتتناثر فيها الجثث .. وتتطاير الأشلاء ... هذا كل مكسبنا ... إنهم لن يبقوا لنا حتى على ذلك الوهم اللذيذ ، والعزاء الجميل الذي غمرنا فيه أنبياء الشرق الحقيقيون ...

— أى وهم وأى عزاء ؟! ..

— جنة السماء ، ومملكة السماء ! ...

— أتسمى هذا وهما ؟! ...

— آه .. معذرة ... معذرة ! ... إنك مؤمن ! ... ما أسعدك أنت ! ... وما أحسن حظك ! ..

الفصل التاسع

خرج « أندريه » من العمل فى استراحة الغداء ، فوجد رسالة من « محسن » تنتظره ، فلم يدهش ؛ إن رسائل « محسن » إليه قد كثرت ، منذ أن غادر منزل الأسرة فى « كوربفوار » جاريا خلف قلبه ... فض « أندريه » الرسالة وقرأ :

عزيزى « أندريه » !...

لم أزل أستيقظ على غنائها ، لكن هذا الصباح قد حدث أمر جلل ، بينما أنا قرب النافذة ، أصغى إليها خفية ، إذا بالباب يطرق ، وإذا« الغسالة » قد حملت إلىّ ثيابى النظيفة ، وقدمت إلىّ ورقة الحساب : عشرة فرنكات ، فلمعت فى ذهنى عند ذاك فكرة أعجبتنى ، وأرجو أن تعجبك ؛ ذلك أنى تناولت الورقة وسطرت فى ذيلها : « سيدتى !... لا أجد معى الساعة نقودا ، فإذا تفضلت وأديت عنى الحساب ؛ فإنى لا أنسى لك هذه اليد ولك جزيل الشكر سلفا مع احترام المخلص : جارك رقم ٤٨ » ودفعت الورقة إلى الغسالة ، وأحلتها على الحجرة السفلى ، التى تقطنها جارتى

« مدموازيل ،... س » !...

ومضت الغسالة بالفعل ، وبقيت أنا أرتجف قلقا ... أتراها تؤدى عنى ؟... واخجلتاه إذا رفضت !... وإذا قبلت فما يكون معنى هذا ؟... ينبغى أن أبادر فأبشرك ؛ لقد عادت الغسالة إلىّ بعد هنيهة ، تقول فى ابتسام : إن « مدموازيل ... س ، جارتى ؛ قد دفعت فى الحال ، دون أن تنبس بلفظ !...

ماذا تقول فى كل ذلك ؟...   محسن ...

ابتسم « أندريه » وطوى الرسالة ، وأشعل لفافة تبغ ودخن قليلا ، ثم أخرج ورقة وكتب :

عزيزى محسن !...

ماذا أقول فى كل ذلك ؟... أقول : إن عهدى بالمحبين أن يظهروا دائما أمام الفتيات ، بمظهر النعمة واليسر والرخاء ، وأن يكونوا هم على الأقل الدائنين وقت الاقتضاء ، ولكنك قد عكست الوضع ، وأصبحت مدينا لفاتنتك بكل شىء ؛ أى : « بالقلب وبفاتورة الحساب » ... إن مسألة التجائك فى الاقتراض إلى « مدموازيل ... س » ، ولما تتوثق بينكما المعرفة ؛ لغاية فى الجرأة !... وإنى لأعجب جدا لهذا الحادث ، وأرى فيه فجر عهد جديد فى تاريخ الغرام !...   أندريه ...

مرت أيام بعد ذلك ، والفتاة تضادف الفتى ، تارة بباب الفندق وتارة فى المصعد ، ولا غرابة فى ذلك ، فهما متحدان فى المسكن إنما الغريب فى الأمر أنه منذ أن أدت عنه الحساب لم يعد يقبل عليها ؛ ذلك الإقبال الذى كانت تراه منه ، ولم يعد يحييها إلا تحية مختصرة ، وإذا جمعهما المصعد ، فهو مطرق لا يريد أن يتكلم ، ولا أن يشير بحركة تنم عن اهتمام لأمرها ، هو الذى كان ينتظر منه أن يبادر فيشكرها على عطفها الكريم ... إنه لم يشكرها ، بل إنه لم يشر قط إلى ما حدث بذكر أو تلميح ، وانفردت « سوزى » فى حجرتها ذات مساء ، وجعلت تفكر قليلا فى أمر هذا الفتى الغريب : أهو شرقى ، متوحش ، لا يعرف الآداب واللياقة ؟ ! ... لكن الأمر فى ذاته أبسط من أن يحتاج إلى معرفة بالأدب أو اللياقة ، ولا يمكن أن يكون ذلك الفتى جاهلا ، إنما هو تصرف مقصود ، لماذا ؟ ... هذا ما لم تهتد إليه الفتاة ... إن هذا الفتى غريب الأطوار ... هذا كل ما تستطيع أن تفهمه ! ...

* * *

لم يكد ينتهى الأسبوع ، حتى تلقى « أندريه » هذه الرسالة ،

عزيزى « أندريه » ! ...

الآن ، آن الأوان أن أفى بدينى ، ولا يليق أن أرد إليها عشرة

فرنكات ، إنما يحسن بى أن أقدم إليها هدية ... ماذا ترى أن تكون هديتى إليها ؟ .. أشِرْ علىّ سريعاً ! ...   محسن ...!

فأسرع الفرنسى وأرسل الجواب :

عزيزى « محسن » ! ...

إن « باريس » كلها لم تخلق إلا للنساء ، و كل تجارة باريس هى فى الهدايا التى تقدم إلى النساء ... ما عليك يا صاحبى إلا أن تمشى قليلا فى أى شارع من شوارع باريس ؛ فإنك واجد عشرات الحوانيت ، التى تعرض ما تشتهى لصاحبتك من حقائب اليد ، وصناديق « البودرة » والقبعات والجوارب والعطور والزهور ، وقد مضى أن نصحنا لك فى هذا و لم تقبل النصح ! ...

أندريه ...

قرأ « محسن » هذه العبارة ، وردد كالمخاطب ، فى غير اقتناع :

حقائب يد ، وصناديق « بودرة » ، وزهور وعطور ! ... أشياء لا معنى لها ؛ إنك أحمق يا مسيو « أندريه » ! ...

ثم مزق الرسالة ، ووضع القبعة السوداء على رأسه ، ونزل إلى الطريق هائماً على وجهه ، طول يومه ، فى شوارع باريس ؛ يفكر ويبحث عن الهدية ، دون أن يدخل حانوتا ، أو يرسل عينه إلى وجه متجر ، فهو لم يعتد النظر إلا إلى واجهات حوانيت الكتب ! ...

وقادته قدمه مصادفة ، آخر الأمر ، إلى سوق الطيور فى الضفة اليمنى من نهر السين ! ... وقرع سمعه صوت ببغاء صغير ، ينادى المارة بصفيره وكلماته الملقنة ، فرفع « محسن » بصره ، وتفكر هنيهة ، ثم دخل الحانوت لوقته وابتاع الببغاء ، وخرج حاملا قفصاً ، ينبعث منه صفير وضجيج ، ومشى به مشية المنتصر الذى ظفر بضالته !! ....

ولكنه لم يسر خطوات فى الطريق ، حتى وجد القفص الذى فى يده قد تبعته القطط والكلاب الضالة ؛ وإذا منظره ، وهو حامل الببغاء ، وكلاب الحى خلفه ؛ قد بدأ يستلفت أنظار المارة ! ... وخشى أن يجتمع حوله العاطلون والصغار ، فاستأجر سيارة حملته مع الهدية إلى الفندق ... وما إن أوى « محسن » إلى حجرته حتى خلع ثيابه على عجل ، وجلس إلى ببغائه طول الليل ساهراً ، يلقنه كلمات وعبارات ... إلى أن رضى عن هذا التلميذ الصغير ، فوضع فى عنق قفصه حبلا رقيقاً ، وفتح نافذته ، وأدلى بالقفص فى الفضاء إلى أن حط على حاجز الفتاة ، ثم جعل يناجيه ؛ مناجاة « حافظ الشيرازى » للببغاء فى قصيدته التى قال فيها :

« أيها الببغاء ! ... أيها الناطق بالأحاجى ! ... احرص إلى الأبد على ريشك زاهياً فى لون الياقوت ، وعلى قلبك فياضاً بالمرح ! ... آه أيها الحظ ! ... اسكب على وجوهنا ماء الورد ولا تبح للصاحى

بأسرار النشوة ! .. نعم ... إن الحكمة هى الثراء الحقيقى ، ولكن ... كم تساوى إلى جانب نظرة الحب ؟! ... »

* * *

استيقظت « سوزى » فى الصباح ، واتجهت إلى نافذتها مترنمة كعادتها ، وما كادت تفتحها حتى رأت نفسها أمام ببغاء فى قفص ، فدهشت ! ... ثم أبصرت الحبل المدلى ، فأدركت من أين هبط فرفعت عينيها إلى الطابق العلوى ، وإذا الفتى فى نافذته يبسم لها ؛ كأنما كان فى الانتظار ، وحياها تحية الصباح فردت عليه التحية باسمة ، ثم أشارت إلى القفص قائلة :

ــ لمن هذا ؟ ..

ــ لك ! ...

ــ لى أنا ؟ ... شكراً لك يا سيدى ... لكن لماذا ...

ــ هذا ما استطعت أن أقدمه إليك ، اعترافاً بجميلك ؛ فأرجو أن تقبليه منى ! ..

ــ ما أجمل هذا الببغاء ! .. ما اسمه ؟! ..

ــ اسمه .. « محسن » ! ...

ــ « محسن » ؟! ..

وما كادت الفتاة تنطق هذا الاسم حتى صفر الببغاء وصاح :

ـــ أحبك ... أحبك ... أحبك ! ...

فضحكت « سوزى » وقالت :

ـــ عجباً ! ... من لقنه هذه الكلمات ...

فأجاب الفتى لفوره :

ـــ لا أحد ... فى « عينيه نظر » ... هذا كل ما فى الأمر ! ..

فابتسمت الفتاة لهذا الجواب وقالت :

ـــ أكرر لك شكرى يا ... مسيو ..

ـــ أتسمحين أن أقدم إليك نفسى ... ولو أن التقدم من هذه النافذة العالية لا يسمى تقدماً ... فالأصح أن أقول : أن ألقى إليك بنفسى ! ...

فضحكت الفتاة وقالت :

ـــ يسرنى بالطبع ذلك ؛ غير أنى لا أضمن لك الوصول سالماً إلى نافذتى ، فألق باسمك وحده الآن فهو يكفى ...

فقال الفتى :

ـــ اسمى « محسن » ! ..

فنظرت إليه نظرة استغراب وقالت :

ـــ كالببغاء ؟! ..

ـــ نعم ! ... لى الشرف أن يكون اسمى كاسم ببغائك ! ...

فابتسمت و لم تجب ، وظن « محسن » أنه تحدث إليها أكثر مما ينبغى ، وخيل إليه أنه ربما أثقل عليها ، وخشى أن يزيد فى الكلام ، فتبدر بادرة تمحو من شفتيها هذا الابتسام ، فحياها سريعاً بإشارة خفيفة ، وابتعد عن النافذة مختفيا لفوره عن أنظارها ... ثم جلس إلى مكتبه يتأمل الأمر ... عجباً !... ما معنى الجلوس ؟ ... وفيم التأمل ؟! ... لقد كانت أمامه ، وكان بينهما حديث ... لماذا تركها ؟ ... ألا يجدر به أن ينهض من مقعده ويعود إليها ؟ ...

ولكن نافذتها كانت قد أغلقت ! ...

الفصل العاشر

شعر « محسن » حوله ببرد الوحدة ... وأراد أن يحادث أحداً ، أو يذهب لمقابلة أحد ؛ غير أن الوحيد الذى يستطيع أن يفضى إليه بشىء هو « أندريه » ! ... إنه ليس مجنوناً حتى يخبر « أندريه » اليوم بما حدث ، فيسخر من خيبته ، ويلقى على مسامعه مرة أخرى : « إن المرأة تكسب بالواقع لا بالخيال » آه ... الواقع !... الواقع هو ... إنه هو الواقع فى حب لا أمل فيه ، ولا يجد إلى جانبه حتى من يعزيه ! ... وتذكر « إيفانوفتش » ... نعم ... لعل ذلك الروسى المنفى مثله فى مجاهل « العزلة » ، يستطيع أن يسرى عنه الساعة ؛ بحديثه الغريب ، واطلاعه ، وتأملاته ...

وكان المساء قد أقبل ، وأدرك أن صاحبه لا بد قابع فى حجرته الحقيرة ، تحت سقف ذلك المنزل العتيق ، فذهب إليه من فوره فوجده كما توقع أن يراه ، جالساً فوق صندوقه الخشبى ، كما يجلس الثراة فوق « الشيزلونج » ! ... وبين يديه كتاب ضخم ينهل من صفحاته ؛ كما ينهل الألمانى من كوب « جعة » ذى زبد ! ...

فما أن رفع رأسه ، ورأى الفتى ؛ حتى أشرقت أساريره المظلمة وانتعش قليلا وجهه الذابل ، وطرح الكتاب من يده ، ونهض يهيئ للزائر مكانا خليقا بجلوسه ، فمنعه « محسن » بإشارة سريعة ، وبادر فقعد مثله على حافة الصندوق ، وصمت قليلا ... وبدا عليه أنه يريد أن يقول شيئا فى نفسه ، ولم يتردد طويلا ؛ فقد انفجر على الرغم منه :

ـــ يا مسيو إيفان!... إنى لست سعيداً ... ولعلك أيضا كذلك ! ... إن سر تعاستنا هو أننا نعيش فى هذه الحجرات المغلقة .. إننا تجهل الواقع وطرائقه المباشرة ... لا شيء يكتسب بالخيال فى هذه الحياة ! ...

فهز الروسى رأسه ، وابتسم ابتسامة ساخرة وقال :

ـــ من علمك هذا الكلام أيها الشرقى ! ...

ـــ هى البداهة ، ولكن أعيننا هى التى لا ترى ! ...

ـــ لا ... لست أصدقك ... ذاك كلام لا ينبغى أن يقوله مثلك ...

فمر طيف « أندريه » برأس « محسن » لكنه لم يقل شيئا ومضى « إيفان » يقول :

ـــ الواقع والطرق العملية المباشرة ؟! ... تلك بالضبط كل حياة

الحيوان ! ... الفاصل الوحيد بين الإنسان والحيوان هو « الخيال ». إن اليوم الذى يستطيع فيه الحيوان أن يحيا دقيقة واحدة ، خارج الواقع والمادة ... اليوم الذى يلجأ فيه الحيوان إلى طرق معنوية غير مباشرة للوصول إلى غاياته ... اليوم الذى يستطيع فيه الحيوان أن يمضى الليل « يحلم » فى غابته المقمرة بدلا من مطاردة الفريسة ؛ هذا اليوم يكون آخر عهده بالحيوانية ... « الحلم » هو العالم العلوى الذى لا يدخله حيوان ! ... « الخيال » هو تاج السيادة والسمو الذى تميز به الإنسان ! ..

وسكت لحظة ، فقال محسن :

— نعم ... ولكن « الواقع » ...

فانطلق الروسى :

— الواقع ؟ .. الواقع ... إنى لا أحترم الآن كثيرا هذه الكلمة ! .

ومر طيف « أندريه » مرة أخرى برأس الفتى ... حقيقة أن صديقه الفرنسى هو الذى يذكر دائماً هذه « الكلمة » ؛ ولكن هذا الروسى الثائر ، الواقف فى منتصف الطريق بين الشرق والغرب ! ... من يضمن لمحسن أنه على حق فى كل هذه التصورات ؟ ... وبدا الشك على وجه الفتى ... وقرأ « إيفان » ما يحول بخاطره ، فصاح به

وهو يهزه من كتفيه :

ـــ آه ! .. « الخيال » ... هو ليل الحياة الجميل ! ... هو حصننا وملاذنا من قسوة النهار الطويل ... إن عالم « الواقع » لا يكفى وحده لحياة البشر ! ... إنه أضيق من أن يتسع لحياة إنسانية كاملة ! ... نعم ... مرة أخرى أقول لك إنى شديد الإعجاب بأنبياء الشرق ! ... إن المعجزة الحقيقية التى جاءوا بها : هى أنهم قدموا للناس عالماً آخر عامراً بسكان من ملائكة ذوات أجنحة جميلة بيضاء ، زاخراً بجنات فيها أنهار من التبر ، وأشجار من الزمرد ، راعداً بنيران تتأجج بلهب زرقاء ؛ كألسنة الأبالسة ، الهائمة كالخفافيش ! ...

فى هذا « العالم » استطاعت البشرية أن تعيش ، حياة أغنى وأحفل من حياة الواقع !... « الغرب » أيضاً حاول ذات يوم أن يخلق للناس مثل هذه العوالم ؛ فظهر فيه أنبياء الخيال ، منشئو « الأتيوبيا » فصنع « توماس مور » : « جزيرة الخيال » و« كامبانيلا » : « مدينة الشمس » و« موريللى » : « قانون الطبيعة » ... و« كابيه » : « رحلة إلى إيكارى » ! . ألعاب صبيانية ؛ كتلك القصور والقلاع والجنان ، التى يقيمها الأطفال على شاطئ البحر من الرمال ! ... نعم خيال « مرتب بيد المنطق » مزين بنظريات العلم والفلسفة؛ كما

تزين قصور الصبية بأوراق الحلوى الفضية الذهبية ! .. لكن ... كم من البشر عاش فى هذه « العوالم » التى صنعتها أيدى « العلماء » أنبياء الغرب ؟؟ ... آه يا صديق ، إن الغرب إنما عاش أجمل حياته فى ذلك الحلم السماوى ، وذلك العالم العلوى الذى صنعه الشرق ، وإن ضياع الغرب لم يبدأ إلا يوم أفاق من هذا الحلم ، ونزل إلى عالم واقعه ، يدب فى هضابه المنحجرة ووديانه الجافة ؛ كما تدب الحشرات ! ...

وسكت الروسى لحظة ، ثم عاد يقول :

آه ! ... السماء ... الجنة ... الجحيم ! ... جرد عالمنا الأرضى من هذه الكلمات الثلاث التى بنيت فى الشرق ، تنهار فى الحال أروع أعمالنا الفنية !... كل ما استطعنا أن نخلق من جمال ، إنما صنع تحت نور شعاع من أشعة مملكة السماء ، إنى أعرف أن « الغرب » اليوم موضع تقدير وإكبار ، لعلمه واستكشافاته وإنتاجه واختراعاته ! ... لكن ما قيمة هذا إلى جانب ذلك الاستكشاف الأعظم الذى ظهر فى الشرق ؟! ... إن الغرب يستكشف الأرض ، والشرق يستكشف السماء ! ... إن الذى استطاع أن يغمر البشرية كلها فى حلم يدوم الأحقاب ... إن الذى استطاع أن يصنع مثل هذا « الحلم » ؛ لهو حقيقة فوق مستوى البشر ، إنا نمجد ذلك الذى

أوجد للإنسانية وأسكن الإنسانية « قارة جديدة » ... لكنا لا نرى مجد ذلك الذى أصعد الإنسانية ، وأسكن الإنسانية : « السماء » ! ...

وتأمل « محسن » ملياً قول الروسى وهو ينظر إلى وجهه المعذب الغاضب ... إنه يريد بحجته القوية أن يخلق إيماناً للمحبة ... ثم لم يلبث أن راح فى تأملاته وهو يقول فى نفسه : إن الإيمان لايصنع ، فهو قد يكون عند الإنسان ، وقد لا يكون ، وحينما نفقده لا يعود ثانية ، أو قد يعود على صورته الأولى . وأنا أيضاً — تحت تأثير التعاليم الحديثة أحس أن إيمانى يضطرب كما تضطرب الوردة فى مهب الريح .

— نعم ... إن « محسن » ليشعر دائماً أنه لا يسكن الأرض وحدها ، إن حياته ممتدة أيضاً إلى السماء ، وإن له أصدقاء وأحباء وحماة من القديسين أهل السماء ... إنه لن ينسى « السيد زينب » الطاهرة وفضلها عليه فى الملمات ... إن لها وجوداً حقيقياً فى حياته ! ... ما من مرة وقع فى شدة ، إلا وجد العزاء عند باب ضريحها ذى القضبان الذهبية . كل نجاح ظفر به فى الحياة ، هو دفعة من يدها ، وكل عطف هو نظرة من عينيها ، وكل ابتسامة من الحظ إنما هى ابتسامة من شفتيها ! ... إنه يتخيل هيئتها ووجهها وملامحها ! ... ويعتقد أنها فى السماء بردائها الأبيض إنما تنظر إليه

دائماً وترعاه وتجعله من شأنها ... كأن هذا هو كل عملها ! ...

لكن هنالك ساعات تتجهم له فيها الحياة ، وتقسو عليه الظروف ويرى كأن « السيدة » قد نسيته ، فيفطن ويذكر لوقته أنه فى تلك الساعات وتلك الظروف ، إنما هو الذى كان قد نسيها ! ... نعم ، إنها لا تنسى إلا من ينساها ... إننا — أهل الأرض — لنشغل أحياناً بما نصادف من فوز أو لذة أو متعة ، فنقع فى غشية من غرورنا ... ننسى معها أنفسنا وننسى السماء وأهلها ... عند ذاك تتركنا السماء فى حقارتنا الأرضية ووحدتنا الباردة ؛ فلا نستيقظ ، ونرى ما صرنا إليه ؛ إلا يوم نحتاج إلى حرارة العزاء وإلى العطف العلوى .. ذكر الفتى كل ذلك .. لقد كان مسجد « السيدة زينب » هو المكان الذى يقضى فيه نهاره أيام الدرس ...

وكانت « السيدة » هى التى تقلب له صفحات الكتب ، فيما خيل إليه ، وكانت هى التى تصبره وتشد عزيمته ، وهى التى كانت تجفف — بأناملها الرقيقة النقية — دموع حبه الأول ، وآلامه الأولى ... إنه لم يكن وحيداً ... آه ... ما أقوى الإنسان الذى يعتقد أن له صديقاً ونصيراً من أهل السماء ! ... إنه كان يحملها نصيبها من التبعات ... إذا أخفق فى خطوة فإن « السيدة » هى التى تخلت عنه ، ولعلها أرادت هذا الإخفاق لحكمة لا يعلمها هو ، وإذا وضع أمله فى

شيء اتجه إليها ضارعاً ، أن تقف إلى جانبه ، وتضم همسها إلى همسه ، وصوتها إلى صوته فى رجاء « الله » ! ... إن هذا الإحساس جميل ، وهذا الاعتقاد مريح ! ... نعم ، لو شعر « محسن » لحظة أنه فى وحدة مطلقة ، وأن السماء ليس لها وجود ، وأنها جرداء جدباء ، غير عامرة بكائنات عليا تتصل حياته بحياتها ، وأنه قد خلى بينه وبين هذه الأرض وحدها إلى الأبد — لما عرف كيف يستطيع تحمل الحياة يوماً واحداً ! ...

عندئذ لمعت فى رأس الفتى — كسنا البرق صورة من حياته فى الغرب ، وللمرة الأولى تنبه إلى أمر مخيف : إنه لم يذكر « السيدة » فى حرارة إلا الآن ، بعد حديث « إيفان » ! ... لقد مرت الأيام تلو الأيام ، وهو يطالع أفكاراً مختلفة من الإغريق إلى « فولتير » ، ويشاهد وقائع مضطربة ، من أزمات القرن الماضى إلى انقلابات ما بعد الحرب ! ... إنها لحمى تعصف بكل رأس ، وإن رأسه قد أصبح كبقية ما حوله من رءوس ؛ فقاعة بين فقاقيع تملؤها الأفكار والحوادث وتتدافع فى شبه إناء من خمر مغلى ! ... ليس فى حياته اليوم إذن مكان تهبط فيه « السيدة » بردائها الأبيض ! ... وإن روح ... قد غار ؛ كما يغور النجم تحت شمس رأسه المحترق ! ... شمس الحق

المحترق الذى كان يتزعمه « فولتير » و« نيتشة » وتحت ضوء هذه الشمس كان يرى بوضوح حقائق وأشياء جديدة ... ولكن وجوه جميلة كانت قد اختفت إلى الأبد ...

آه ... إنه قد نسى حاميته التى فى السماء ! ... لو أنه أحس يدها على كتفه لما تعثر فى خطاه أمام صورة « سوزى » ! ...

الفصل الحادى عشر

فتح « محسن » عينيه فى الصباح ، على شبه صوت ملائكى ينادى اسمه ! ... أتراه صوتا آتياً من السماء ؟ ... ولكن النداء تكرر واضحاً عذباً ، فوثب الفتى من فراشه وأصغى ، ثم ابتسم : إنه آت من النافذة السفلى ... عجباً ! ... إنها « سوزى » تقول فى نغمة موسيقية :

ـــ محسن ! ... محسن ! ...

فأسرع الفتى إلى النافذة كالمجنون :

ـــ أتنادينني ؟ ...

فرفعت الفتاة أهدابها الجميلة ، فى شيء من الدهشة ! ... ورأى الفتى يدها على قفص الببغاء ، تقدم إليه حب « القرطم » ، فأدرك كل شيء ؛ فتخاذل وارتبك :

ـــ معذرة ! ... لقد نسيت ... إنى أشترك مع ببغائك فى عين الاسم ! ...

ورآها تبتسم ، ورأى جمالها فى ذلك الصباح الباكر أنضر من زهر

« النرسيس » فى أصص نافذتها ، فتشجع وقال :

ـــ نعم ، إنى أشترك مع هذا الببغاء فى الاسم ، ولكن لا أشترك معه فى الحظ ! ... إن الفرق بيننا عظيم ... إنه هو الذى يحظى بعنايتك ، فتنادينه ؛ وتناجينه ؛ هذا الأحمق الذى لا يشعر بمقدار ما يناله من سعادة ! ... آه ... لأولئك الاشتراكيين الذين يطلبون المساواة بين الناس فى الحظ والنصيب ، وأنا لا أستطيع أن أطمع فى مساواتى فى الحظ والنصيب بهذا الببغاء ! ...

فضحكت الفتاة وقالت :

ـــ أتراه مطمعاً عسيراً ؟! ...

ـــ أن أكون مثل هذا الببغاء ... لست أطلب شيئاً إلا أن أكون مثله بالضبط ! ...

ـــ ولكنك لست فى قفص ! ...

ـــ آه يا سيدتى ! ... إنى فى قفص ، لا يراه كل الناس ! ...

فنظرت إليه الفتاة ملياً ، ثم قالت باسمة :

ـــ إذا كنت حقيقة كذلك ؛ فأنت تستحق إذن شيئاً من ذلك العطف ، الذى تمنحه الطيور السجينة فى الأقفاص ! ...

فأسرع الفتى يقول فى تضرع :

ـــ ثقى أنى أشد طيور الأرض استحقاقاً لعطفك ! ...

فسألته الفتاة :

ـــ وما نوع العطف الذى تريده منى ؟ ... إنى بالطبع لا أستطيع أن أقدم إليك قليلا من « القرطم » ! ...

ـــ إنك تستطيعين أن تتناولى معى قليلا من « القرطم » ... هذا المساء فى مطعم ... فى أى مطعم يروقك !؟ ..

فضحكت الفتاة ضحكة طويلة رقيقة :

ـــ يا لك من مداعب ماهر ! ...

ـــ أنا يا سيدتى ؟! ... لأول مرة أسمع من يصفنى بالمهارة فى شىء ... شكراً لك ! ..

* * *

لم يأت العصر ، حتى كان « محسن » فى منزل « أندريه » يقيم الدنيا ويقعدها ، وقد أجلسه صديقه الفرنسى أمام المرآة ، وجعل ينظم له شعره الأشعث ، بينما أخذت « جرمين » تنظف معطفه الأسود بالبنزين ، وتزيل عنه البقع ... ورأى الفتى اهتمام زميليه . فصاح يحمسهما :

ـــ نعم ... اصنعا منى إنساناً خليقاً بلقاء امرأة جميلة ! ...

فابتسمت « جرمين » ، وقالت فى سخرية غير واضحة :

ـــ عرفت اسمها أخيراً ؟ ...

— سوزى ! ...

لفظها الفتى همساً ، كمن يرتل صلاة ، ولكن « جرمين » سمعته فقالت باسمة :

— اسم جميل ... والموعد : أين ؟ ... ومتى ؟ ...

— هذا المساء فى محطة « المترو » ! ...

— وبعد ؟ ...

— سنتناول العشاء ! ...

— فى أى مطعم ؟ ...

— آه ... صدقت ... لست أدرى ... يا للمصيبة ! ... نسيت التحرى عن المطعم الموافق ... أسرع ! ... أسرع يا « أندريه » وخبرنى عن رأيك فى هذا الموضوع الخطير ! ... »

فصاح « أندريه » يائساً :

— لا تهتز هكذا ... لقد فسد ترتيب شعرك ... وتبعثرت خصلاته من جديد ... آه ... لقد ضاع تعبى فيك سدى ! ...

— ولكن موضوع المطعم ذو أهمية كبرى ! ..

— لا شىء أتفه من موضوع المطعم ... هذا الذى تصفه بالخطورة والأهمية الكبرى ! .. كل شىء تتخيله أنت دائماً هائلا. لو كنت مكانك لأخذتها ، بكل بساطة ، إلى مطعم « بوكاردى » ! ...

فضحكت « جرمين » ضحكة طويلة ، فنظر إليها زوجها نظرة العجب :

ـــ لماذا تضحكين ؟! ...

ـــ إنه المطعم الذى ذهبت بى إليه يوم لقائنا الأول ، ومع ذلك ... لم تشأ يومئذ أن تطلب من أجلى « أوردفرفاريه » ! ..

ـــ أما زلت تذكرين تلك الحماقات ؟! ..

فصاح «محسن » وهو يلتفت إليهما :

ـــ آه ... أحسنتما صنعاً بهذه الحماقات ! ... سأطلب لها أنا هذا « الأوردفرفاريه » ! ...

فانتهره « أندريه » :

ـــ قلت لك : لا تهتز ! ... ولا تتحرك ، حتى أفرغ وأطمئن على منظرك ! ...

فالتفت الفتى إلى المرآة وهو يقول فى قلق :

ـــ وهل تعتقد أن الحال سيدعو إلى الاطمئنان ؟! ...

ـــ إن الأمر على كل حال لا ينبغى أن يدعو إلى اليأس ! ...

فسكت « محسن » على مضض ... ثم عاد يقول سريعاً ؛ كمن تذكر شيئاً هاماً :

ـــ اسمع يا « أندريه » ! .. فى جيب معطفى قارورة

« هوبيجان » من الصنف الغالى ، اشتريتها عملا بنصائحك الغالية ... أترى أن أتعطر منها قبل اللقاء ؟! إنها كفيلة أن ...

ــ المسألة ليست مسألة « هوبيجان » ! ...

ــ تريد أن تقول ...

فألقى « أندريه » نظرة أخيرة على شعر « محسن » ووجهه ، ثم صاح فى نبرة مرحة :

ــ أريد أن أقول إن لك الآن وجه عاشق يستطيع أن يذهب تواً إلى موعده ! ...

فنهض « محسن » واتجه إلى « جرمين » الباسمة :

ــ أهو يخدعنى ؟! ..

فقالت « جرمين » للفور وهى تقدم إليه المعطف :

ــ إنه يقول الحقيقة ... البس معطفك ، وانطلق مطمئناً ، أيها الفتى السعيد ! ...

فارتدى « محسن » معطفه ، ووقف أمام المرآة يتأمل هيئته طويلا :

ــ المسألة مسألة ذوق ! ... ما دام هذا المنظر يصلح فى رأيكما للذهاب إلى المواعيد ، فليس من الكياسة أن أطعن فى ذوقكما ! ... إلى الملتقى ! ...

قالها وهو يتحرك إلى الباب ، رافعاً قبعته السوداء فى الهواء ، وشيعه « أندريه » وزوجته إلى السلم ، وهما يقولان يا سمين :

ــ تشجع ! ...

* * *

انتظر « محسن » الفتاة إلى أن جاءت ، وذهبا إلى « بوكاردى » فتناولا العشاء ، ثم خرجا إلى « الجران بولفار » ، فشربا القهوة فى أحد المشارب ، ودقت الساعة العاشرة ، فنهضت « سوزى » طالبة العودة إلى مسكنها.. عند ذاك فقط أفاق الفتى وثاب إلى رشده ... وأحس فجأة الجوع ؛ فهو لم يأكل شيئاً فى المطعم ، هو الذى كان قد دخله جائعاً ، فخرج منه جائعاً دون أن يشعر ! ... وهل كان فى مقدوره ، وهو إلى جانبها ، أن يفكر فى أكل أو شرب ؟! ... إن المعدة لتنام عندما تستيقظ الروح ! ... إنه لا يذكر شيئاً من أمره ، لكنه يذكر كل شيء من أمرها هى ، يذكر حركة يديها الرشيقتين وهى تتناول « الأوردفرفارييه » ، ويذكر جمال فمها وهو يشرب « البرجونى » ؛ ويسمع صدى ضحكاتها الرقيقة الخافتة ، عندما كانت تراه يذهل عن الطعام بالرنو إليها ، أو الكلام الطويل فى أشياء لم يعد يذكر ما هى ...

ومرت الساعات ، كأنها اختلاجة من أهدابها ، وها هو ذا قد

حان وقت الافتراق عنها ! ... لا ... هـذا مستحيـل ... أبهذه السرعة قد وصلا إلى باب النزل ؟ ... لماذا يقسو القدر على الناس هذه القسوة ؟ ... إن الساعة لتطول كأنها الدهر عندما نقع فى كرب أو بلاء ، وإنها لتقصر كأنها ابتسامة عابرة عندما نجتاز النعيم ! ..

ولم يرع الفتى إلا يدها تمتد إليه مودعة قبل أن تدخل النزل ...

— لا إن الوقت ما زال متسعاً ، ونحن مازلنا فى أول الليل ، وعندى كلام لم أفض بعد به إليك ...

قالها « محسن » وهو محتفظ بيد « سوزى » فى يده فى حرص وخوف ... فقالت الفتاة :

— إنى لا أستطيع طبعاً أن أستقبلك فى حجرتى الساعة ، ولا أن أصعد إلى حجرتك ؛ فأفض إذن بما تريد ها هنا الآن ، أو ... فلنسر قليلا فى هذا الشارع ...

ومشيا جنباً إلى جنب فى ذلك الطريق الطويل ذى الأشجار الكبيرة ، إلى أن بلغا حدود « بورت دى ليلاس » ، وعادا من عين الطريق إلى أن اقتربا من ميدان « جامبتا » وفاجأتهما الأنوار فرجعا أدرا جهما يحتميان فى ظلال الأشجار ، والفتى لا ينبس ، وهى صامتة صمت من ينتظر منه الإفضاء بشىء ... وكأنها عيل صبرها فقالت فى صوت خافت رقيق :

— ماذا كنت تريد أن تقول لى ؟ ...

— كل شىء ! ...

— إنى مصغية إليك ! ...

فأراد « محسن » أن يتكلم ، لكن الألفاظ هربت من رأسه ؛ كما تهرب العصافير من الأقفاص ... إن لديه إحساساً عارياً ، ولا ينبغى أن يظهره عارياً أمام سيدة ! ... لا بد له من ثوب أنيق ؛ فالمرأة يسرها دائماً الثوب الأنيق ، وإن كان على جسم نحيل من عاطفة نحيلة ! ... إن هذه الفتاة لا شك تدرك ما عنده ، وهى لا تكتفى بذلك ، وهى إنما تدمى قدميها ، سراً فى هذا الليل ؛ لتسمع ألفاظاً يلذ لها سماعها فى ذاتها ... فماذا تراها تفعل بمشاعر قوية فى أطمار بالية ...

وخشى « محسن » العاقبة ، وتغلب عليه الوهم فقال كالهامس :

— لا ... لا أستطيع الآن ...

فقالت هى أيضاً كالهامسة :

— لماذا ؟! ...

— غداً ، إذا شئت ...

— بل الآن ! ...

فتردد الفتى لحظة ، ثم تمالك وانطلق انطلاق الهارب الخائف الذى يريد أن يقنع عقله بالشجاعة والثبات ، قائلا كالمخاطب لنفسه :

— لست جديراً أن أقول لك ما أريد الآن ، دعيني أبعث إليك غداً برسول عني يحسن الكلام ! ...

— من هو ؟ ...

— الشاعر الإغريقي القديم « أنا كريون » ، سأحضره معي عصر الغد عند محطة « المترو » ، وسيفضي هو إليك بكل شيء ! ...

الفصل الثانى عشر

كانت كل حياة « محسن » فى الأربع والعشرين ساعة التالية : ترقب الموعد ، وإعداد نفسه ، وترويض لسانه ، وضبط أعصابه لمواجهة الموقف ! ... وجاء العصر فارتدى ثيابه فى عناية ، وهمّ بالخروج ، ولكن الباب طرق عليه ، وظهرت خادم النزل تقدم إليه رسالة وردت « بالبريد السريع » ، ففض الفتى غلافها بيد ترتجف ، وقرأ فى لحة واحدة :

صديقى ...

أرجو منك ألا تنتظرنى هذا المساء ، فى المكان المعروف ؛ فإنى سأبقى فى العمل إلى ساعة متأخرة ، لم تكن فى الحساب !... إذا كنت مع ذلك فى مسكنك ، فإنى أمر بك عند منتصف العاشرة ، لأقول لك « بونسوار » !... سوزى .

عاد الدم يجرى إلى وجه الفتى وهدأ تنفسه ، وانتظمت دقات قلبه ، ثم خلع سترته ، وجلس إلى مكتبه يفكر باسماً ، ويتلو خطابها على مهل ... ووقف عند كلمة « صديقى » ثم عند قولها : « فإنى أمر

بك » فأحس طرف أجنحة السعادة تمر به ، ورفع عينيه إلى ما حوله ؛ إنها ستأتى هنا بعد قليل ... ما كل هذه الكتب المكدسة فى غير ترتيب ؟ ... ينبغى أن يقر فى الحال النظام محل الفوضى ، وقام من فوره إلى حجرته ، يهيئها للاستقبال العظيم ...

* * *

وجاء الليل وانتشر الظلام فى سماء شبه صافية ، تؤذن بانتهاء الشتاء ، ووقف « محسن » قرب النافذة ينظر إلى النجوم المتألقة بأشعتها الزرقاء وأذنه مرهف إلى الباب فى قلق ونفاد صبر ، وخيل إليه مرات أنه يسمع نقراً خفيفاً على بابه ، فكان يسرع إلى فتحه فلا يجد أحداً ! ... لقد اختلط فى رأسه الوهم بالحقيقة من طول التأمل والانتظار ، وسمع أخيراً طرقة هزت قلبه قبل أن تبلغ رأسه فأيقن أنها هى ... فأصلح من شأنه على عجل ، وفتح الباب ... نعم ... إنها هى هذه المرة ... بقبعتها ومعطفها وبقية ثياب الخروج ودخلت مبتسمة كأنها زنبقة :

— لقد جئت توا كما ترى ، قبل أن أمر بحجرتى ... آه ! .. أهذه حجرتك ؟ .. إنها جميلة ...

— الآن فقط ، أرى أنها جميلة ! ..

— ما كل هذه الكتب ؟ ... إنك تقرأ كثيراً ... أتلذلك بهذا

المقدار الحياة فى ...

ــ وأنت ؟ ...

ــ إنى أفضل الحياة فى ... الحياة ...

ــ أنت أيضاً ! ..

ــ لماذا تنظر إلىّ هكذا ؟ ...

ــ أصبت ... أرى الآن أنى على خطأ ... ما الذى يعنينى من أمر حياتك أنت ؟ ... ما أنت إلا « حلم » يحيا فيه... الآخرون ..

ــ ومن هم الآخرون ؟ ...

قالتها فى ابتسامة ذات معنى ، وأناملها تعبث بصفحات كتاب فوق الكتب ... وأرخى الفتى بصره ، ولم يجرؤ على المضى فى الكلام ... ونظرت إليه لحظة ، ثم قالت فى صوت خافت رقيق :

ــ إنى مصغية إليك ! ...

فتذكر « محسن » البارحة ، وفطن إلى مرادها ... فرفع رأسه ، وقال :

ــ أتسمحين لى أن أقدم إليك من يستطيع أن يتكلم باسمى ؟ ..

ــ ذلك الشاعر الإغريقى الذى قلت لى عنه ؟ ... ما اسمه ؟ ...

« أنا كريون » ! ...

ــ نعم .. نعم ... أين هو ؟ ..

فأشار بأصبعه إلى الكتاب الذى تعبث به :

ــ إنه بين يديك ! ...

فضحكت ضحكة ساخرة ، ورفعت الكتاب تنظر فيه ، وبادر «محسن» فدلها على إحدى صفحاته ، وقال لها :

ــ اقرئى هذا ! ...

فقرأت :

« إنى أريـــد ... أريـــد أن أحب ..

ولقـد زيـن لى « الحب » أن أحب ...

فأبيْت من جهلى أن أصغى إليـه ...

فقبض من فوره على قوس من ذهب ! ...

ودعانى إلى القتال ... فلبست له الحديد ...

وأمسكت بالـــرمح والـــدرع ! ...

ونهضت ؛ كــأنى « أشيــل » ! ..

أنازل « الحب » ، فسدد إلىّ سهاماً ...

حدت عنها فطاشت ، ونفدت سهامه .

فتقـــدم إلـــىّ يتقـــد غضبـــاً ...

وهجـم علـىَّ فاختــرق جسمـــى ...

ونفــذ إلى قلبــى ! ... فـانهزمت ! ...

يا لها من حماقة أن أتقى بدروع ! ...

أى سلاح خارجى ينتصر على « الحب »

إذا كانت المعركة قائمة داخل نفسى ؟! ..

وفرغت الفتاة من القراءة ، ولكن بصرها بقى جامداً على السطور ، وكان الفتى قد دنا منها ، يقرأ معها من صفحة واحدة ، فأحس شعرها المعطر قد انتثرت خصلاته الذهبية على وجهه ؛ كما تنتثر أشعة القمر على الكائنات ، ولم يذكر الفتى شيئاً عندئذ ، ولم يفطن إلا إلى وجه « سوزى » الناعم الحار ، قد لاصق وجهه ؛ وكأنها تقبله ! ... نعم ، إنها بين ذراعيه تقبله ، هذا لا ريب فيه الآن ، وهى حقيقة واقعة الآن ، لا وهم فيها ولا غموض ، ولم يدر الفتى كيف حدث ذلك ، ولا ما يصنع بعد ذلك !؟ ..

آه لأولئك الخياليين ، عندما يعطون فجأة : « الحقيقة » ... نعم ، فجأة ؛ أى قبل أن يترك لهم زمن ، يسبغون فيه على تلك « الحقيقة » أردية الخيال الموشاة ! ... إنهم يتلقون جسما غريباً ومادة عارية ، لا يعرفون ماذا يراد بها ... إن « الحقيقة » عملة لا تجوز فى مملكة « الأحلام » ...

لم ينم « محسن » تلك الليلة ؛ فقد كان وقع ما حدث ذا دوى فى نفسه ... وجاء الصباح فأسرع إلى صديقه « أندريه » يقص عليه كل

شى ! ...

وابتسم الفرنسى لرواية الفتى ، وقال له :

ــ أرأيت ؟ ... إنها فتاة ككل الفتيات ! ... وعاملة كآلاف العاملات ... تلك التى أسكنتها قصراً من قصور ألف ليلة وليلة ، وجعلتها تنظر من عليائها ، إلى مواكب الناس المتدفقة تحت شباكها . آه أيها الصديق ! ... اقتنعت الآن أن الأمر أقل خطراً مما كنت تتصور ، وأن وقوع امرأة بين ذراعيك مسألة بسيطة،لا تحتاج إلى كل هذا الوقت، إلى كل هذه الخيالات والتأملات !؟ ..

فأحس الفتى إحساس من يهوى إلى الأرض ؛ وكأن قيم الأشياء فى نظره قد تضاءلت ، وكأن الحياة نفسها قد تجردت من غطائها ؛ فبدت عارية كتمثال مصبوب من السخف ! ... وشعر « محسن » بفراغ فى مادة نفسه ، لا يدرى بعد اليوم بماذا يملؤه ! ...

وترك الفتى صاحبه ، وانصرف مطرقاً ؛ دون أن ينبس بحرف ! ...

الفصل الثالث عشر

... ولكن للأرض لذاتها وآلامها ! ... لقد هبط « آدم » الأرض فغمره نعيم وجحيم ، من نوع آخر ومادة أخرى ... وهكذا كان يستيقظ « محسن » بعدئذ كل صباح على قبلات ملتهبة ، فيفتح عينيه ، فإذا موجة من ذهب ذلك الشعر الجميل قد غطت وجهه ... وصوت عذب يقول له :

ـــ أورفوار ! ...

ثم خطى قدمين صغيرتين تخطر على خشب الحجرة ، وتتجه إلى الباب ، فى شبه حركة راقصة ، ثم صوت الباب يفتح ويغلق ... ثم لا شىء ... إنها ذاهبة إلى عملها ! ..

لم يكن لـ « محسن » بعد ذلك من عمل إلا الاستمرار فى النوم إلى الضحى ؛ فلم يعد به حاجة إلى التبكير ، ولم يعد صوت غنائها هو الذى يوقظه ، إلى أن يكل من النوم ، فينهض فى تراخ ، ويرتدى ثيابه على مهل ، ثم يخرج إلى مطعم « الأوديون » بجوار المسرح ينتظرها فيه لتناول الغداء ، ثم يبقى معها حتى موعد فتح شباك التذاكر فى

منتصف الثالثة ، فيتركها ليعود إليها ساعة العشاء فى ذلك المطعم ، ثم يذهبان وقد فرغت من عملها إلى « سينما » الحى ، فيجلسان متلاصقين ، يتبادلان القبلات فى الظلام ؛ كما يفعل من بجوارهم من عمال وعاملات ! .. وتذكر « محسن » ذات مرة ملاحظته الأولى ، يوم رأى فتى فرنسياً يعانق فتاة فى الطريق . لقد حسب يومئذ أن فى ذلك امتهاناً لقداسة الحب ! ...

أتراه يقول ذلك الساعة ؟ ... لا ، ما الذى تغير ؟ ... لا شىء ... إنه يحب دائماً ، ولكن طعم « الحب » هو الذى تغير ... التفاحة هى التفاحة ؛ ولكن تفاحة أرض جديدة ! ... تفاحة « الأرض » ... حلوة لكن داخلها الدود ! ... ولم يكن « محسن » يطيق إبطاء « سوزى » خمس دقائق عن موعدها ، ولم يكن يحتمل رؤيتها تبتسم لأحد معارفها ، وهى تحنى رأسها بالتحية ، ولم يعد يرى صورتها فى أحلامه ممتزجة بأنغام « الأنترمتزو » و« رقصة الفراندول » ولكنه يراها فى نومه ، تعانق رئيسها « هنرى » الذى عرف منها بعض أخباره ، أو يراها تقبل شاباً زنجياً تلك القبلات الملتهبة ؛ فينهض منزعجاً مضطرباً ، يود أن يمزق جسدها بأسنانه ! ...

* * *

وجلس « محسن » ينتظرها ذات مساء فى ذلك المطعم ، الذى يؤمه ممثلو « الأديون » وفنانوه ، ومضت ساعة مجيئها و لم تظهر بالباب ، فاختفى الابتسام من وجه الفتى ، وذهبت رغبته فى الطعام ، وود لو ينهض ويخرج ويركض هارباً ؛ حتى تأتى ولا تجده ، وخامرته الشكوك ، و لم يستطع أن يقبل فى أمرها عذراً ، وحكم عليها فى نفسه حكما قاسياً ، وتمنى لو يحطم شيئاً : حقيبة يدها ، أو طبقاً من هذه الأطباق ... ولكن الباب فتح فى تلك اللحظة ، وبدت « سوزى » مسرعة إليه ، وكأنها قرأت فى وجهه كل ما فى نفسه ، فبادرت تقول :

ـــ أبطأت عليك قليلا ؛ أردت أن أحصل على تذكرة دعوة للحفلة الأولى من الرواية الجديدة ... لأقدمها إليك ! ..

وأخرجت من حقيبة يدها رقعة من « الكرتون » أعطتها إياه ، فأخذها .. ولكن الهدوء لم يستقر فى نفسه ؛ فقال لها فى صوت حار :

ـــ إنى أحبك إلى حد مخيف ... إلى حد الرغبة فى أن أنهال عليك ضرباً ...

فقالت مبتسمة وهى تفحص قائمة الطعام بعينيها

ـــ هذا مخيف حقاً ! ... ماذا طلبت من الأكل ؟ ...

ــ إنى أحبك ... أحبك كثيراً ! ...

قالها كالمخاطب نفسه ، وهو يفحص بعينيه خصلات شعرها المتهدل تحت القبعة ، وجاء خادم المحل يتلقى الأمر ، فطلبت الفتاة ما اختارت من بين الألوان ، والتفتت إلى الفتى الساهم ؛ كما التفتت إلى الخادم وصاحت به :

ــ عجباً ! ... ماذا تريد أن تأكل ؟ ...

فرقع الفتى بصره ؛ كمن ثاب إلى رشده ، وتناول بطاقة الطعام وهو يقول :

ــ ماذا آكل ؟ ... لست أدرى ؟ ... أشيرى علىّ أنت ... فإنى لا أستطيع أن أعصى لك أمراً ! ...

فطلبت له مثل ما طلبت لنفسها ، وانصرف الخادم ، والتفتت هى إليه :

ــ ماذا بك ؟

ــ لا شىء ! ... ما أشد الحرارة داخل هذا المكان ! ...

إنى أحس العطش ...

وسكب قليلا من الماء فى كوبه ، وجرع منه جرعتين ، وقالت « سوزى » ، وهى تبحث عن كوبها الذى لم يوضع بعد على المائدة :

ــ إنى أيضاً أحس العطش ...

وتناولت كوب « محسن » ، وشربت من الموضع الذى شرب منه الفتى ، وهى تنظر إليه باسمة ، ورأى الفتى ذلك منها ، فقال فى صوت خافت نارى متقطع ؛ كأنه حميم متطاير :

— بى رغبة هائلة فى أن أقبلك الآن ! ...

فضحكت ضحكة رقيقة كلها دل ، ونظر خلسة إلى من حوله فى المحل ، ثم مضى يقول :

— لا أستطيع ؛ فلأقتع الآن مرغماً بالشرب من الموضع الذى مس شفتيك .. كما فعلت معى ! ...

ورفع الكوب إلى شفتيه !! ...

الفصل الرابع عشر

عاش « محسن » حياة « الواقع » ؛ يأكل ويشرب وينام فى « الحقيقة » ، ولم يفطن إلى كتبه المغلقة منذ تلك الليلة ، ولم ير فوق أكداسها غير بضعة دبابيس للسيدات ، وعلبة « بودرة » قد تناثر منها مسحوقها الخمرى النحاسى ؛ فى لون الأجسام الرخامية التى عانقتها الشمس على شاطئ البحر .. ذلك اللون المحبوب من البار يسيات فى ذلك الوقت ! ... نعم ، لم يعد البياض الناصع ، لون السحب ، هو المثل الأعلى ! ... إنما هى الحمرة الحارة ، لون الصلصال المحترق !! ...

وتلاقى « محسن » و« سوزى » على مائدة المطعم هذا المساء مبكرين ؛ فالليلة الحفلة الأولى للرواية الجديدة ، وقد جاء للتمثيل فيها الممثل الشهير « دى فيروزدى » ! ...

وكان الفتى باسم الثغر ، منشرح الصدر ، يلتهم طبق « البفتيك » فى نشاط ظاهر ، ولحظته الفتاة قليلا وابتسمت قائلة :

ـــ أرى أن لك اليوم شهية للطعام ! ...

— إن « البفتيك » لذيذ ، ولكنى — مع ذلك — مسرور لسبب آخر ! ..

— ما هو ؟ ...

— إنى مدعو إلى الحفلة الأولى فى ثانى مسرح بباريس ! .. إنها المرة الأولى التى يقع لى فيها ذلك ... وهذا بفضلك ... إنى فخور بك ! ...

— هذا شىء لا يدعو إلى الفخر ! ...

— لا ... إنك ...

— لا تقل شيئاً ! ... كل بغير أن تتكلم ، يا ببغائى الكبير ! ...

— آه ! ... ببغاؤك الكبير ! ... كم أغبط ذلك الآخر الصغير ! ... إنه فى قفصة ، فوق نافذتك ، أكثر حرية منى بين يديك ! ...

— قلت لك لا تتكلم حتى تفرغ من طبقك ... إنى أعلم أن لا شىء يذهب شهيتك دائماً مثل الكلام على المائدة ! ... استمع أنت ، وأنا أتكلم ! ...

— نعم ، تكلمى أنت ! ...

وعكف « محسن » على طعامه ، وأرادت « سوزي » أن تفتح فمها بالحديث ، ولكن الباب فتح ، وظهر شيخان جليلان ابتسما

للفتاة فى تحية من رأسهما ، وجلسا إلى إحدى الموائد ، وقد هرع إليهما مدير المحل وغلمانه ، ورأت الفتاة علامة الاستفهام على وجه الفتى ؛ فأسرعت تقول له هامسة :

ــ أتدرى من هذا الشيخ القصير ؟ ...

ــ من هو ؟ ...

ــ مسيو « دى فيرودى » نفسه ! ...

فرفع « محسن » رأسه ينظر إليه فى عجب وإعجاب ... ثم قال هامساً :

ــ هذا « دى فيرودى » ؟! ...

ــ إنه مثال الوداعة وطيب الخلق ...

ــ ومن هذا الشيخ الضخم الذى معه ؟ ...

ــ عجباً ، ألم تره من قبل ؟ ... هذا مسيو « سيلفان » ! ...

ــ « سيلفان » العظيم ؟! ...

ونظرت « سوزى » إلى طبق « محسن » ، ثم قالت فى الحال بلهجة الآمر :

ــ والآن ، الكلام ممنوع يا ببغائى العزيز ! ...

ــ نعم ! ... تكلمى أنت ...

وعاد الفتى إلى الأكل ، وجعلت « سوزى » تتحدث :

— أتعرف أن زوجة مسيو « سيلفان » تجيد طهي « البويابيس » ؟ ... وأن مسيو « هريو » وزير المعارف وهو الصديق الحميم للممثل « سيلفان » لا يستمرئ أكل « البويابيس » إلا من صنع « مدام سيلفان » العجوز ؟! ... اسمع هذا : فى الشهر الماضى ...

و لم تتم ؛ فقد فتح الباب ، وظهر شاب فرنسي جميل الطلعة ، ما كاد يقع بصره على « سوزى » إلى جانب « محسن » حتى تغير وجهه ، وما كادت تراه الفتاة على هذه الحال حتى تغير وجهها ، وانقلب كل شيء فيها رأسا على عقب ، وشعر « محسن » فى تلك اللحظة أن مصيبة نزلت به ، لا يدرى بعد ما هى ، وجلس ذلك الشاب إلى خوان قريب ، ووجهه فى وجه الفتاة ... لكنه أطرق وجعل كأنه لا ينظر إليها ، ووضع عينيه فى « قائمة » الطعام ...

وأطرقت « سوزى » كذلك ... وكانت قد فرغت من الأكل فلم تدر ماذا تصنع ، وقلق « محسن » فسألها :

— ماذا دهاك ؟ ...

فلم تجبه ، و لم تلتفت إليه ، وأومأت إلى غلام المطعم فاقترب منها فقالت له :

— مجلة « الإلستراسيون » من فضلك ! ...

فأسرع الخادم وأحضر إليها الصحيفة المصورة التى طلبتها ، فتناولتها ونشرتها بين يديها ، وجعلت تتأمل صورها فى صمت كأنها غير حافلة بوجود « محسن » إلى جوارها ، وأحس الفتى منها ذلك فغلى الدم فى رأسه ، وقال لها بصوت هامس يقطر مرارة :

— أهذا هو صاحبك « هنرى » ؟ ...

فلم تجب ، فمضى يقول :

— لماذا تسكتين الآن عن الحديث معى ؟ ..

فلم تجب ، فقال :

— أريد أن أعرف معنى اهتمامك الآن فجأة بهذه المجلة وهذه الصورة ؟ ! ...

فلم تجب ، فقال :

— تريدين أن تفهميه فى بساطة أنى إنسان لا خطر له عندك ، وأنك تتناولين معى العشاء عن غير رغبة أو سرور ؟! ...

فلم تجب ، فقال ذاهب الصبر :

— وبعد ؟ .. ألا تقولين كلمة ؟ ... لقد قضى الأمر إذن ، ولم أعد بيغاءك العزيز ؟ ... وأنت ما عدت تحرصين على شهيتى للطعام أو الشراب ، والإقبال علىّ تحدثيننى كما كنت الآن تفعلين ؟! ...

فلم تجب ، ولم ترفع رأسها ، ومضت تقلب الصور ، فقال فى

غضب مكتوم ساخر :

ــ ثقى أن خليلك قد اقتنع الآن كل الاقتناع أنك تفضلين قتل الوقت بمطالعة المجلة ، على الحديث مع مثلى ! ... نعم ، لقد فهم الآن أنى لا أساوى شيئاً فى نظرك ! ..

فلم تقل شيئاً ، فقال :

ــ لعلك تريدين أن يفهم أكثر من ذلك ؛ فيرى أنى لست أكثر من معجب مفتون ، من أولئك المغفلين الأجانب ، الذين ينفقون على الغانيات ويتقبلون فى رضا إعراضهن وإهمالهن وازدراءهن ؟! ..

فلم تجب و لم تتحرك ، فقال :

ــ إنك تحملينني من الإذلال ما لا أطيق ! ... نعم ، ينبغى أن أقول لك : إن ما تصنعين بى الآن لكثير ، وليس الذى يعنينى من الأمر هذا الحب الهائل ، الذى ظهر فجأة الساعة فسحرك ، وجعل منك تمثالا من الشمع ، فأنت حرة فى شئون عواطفك ، ولا يدفعنى إلى هذا الكلام ألم أو غيرة ... حقيقة أن حالى الآن لا تدعو إلى الاغتباط والارتياح ، ولكنى أنا أيضاً حرٌ فى شئون عواطفى ! .. ما أسألك عنه الساعة هو أن تفكرى قليلا فى أمر موقفى ، وأن تنقذى على الأقل المظاهر ، وأن تعاملينى فى شىء من البر والكرم ، وألا تجعلينى ذليلا أمام حبيبك أو خليلك ؛ إلا إذا كنت تقصدين ذلك ؛ وكان هذا هو

السبيل الذى ترتفعين به فى نظره ، وتصلين به إلى عنايته وحسن التفاته ! ... وبعد ؟ ... ألا تقولين شيئاً؟ ... أمصرة أنت على هذا الصمت المهين ؟ ... إذن ... ليس فى وسعى الآن مع الأسف العميق إلا أن ...

وأومأ إلى الخادم فجاء ودفع إليه سريعاً قيمة « الحساب » كله ، ثم نهض قائلا :

ـ وداعاً ... يا سيدتى ! ...

ومضى على عجل دون أن ينظر إليها ، وخرج من المطعم خروج آدم من الجنة ! ...

الفصل الخامس عشر

قبع « محسن » فى حجرته ، مهيض النفس ، جريح القلب ، وجعل ينظر إلى كل شىء حوله ؛ كمن ينظر إلى شىء غريب ! ... نعم ، لقد فقد هذا المسكن معناه ، وهذه النافذة ، ما عادت تشرف الآن على ذلك الهناء ... وإن صوت الغناء العذب المتصاعد من النافذة السفلى ، ليس الآن غير طعنه طويلة ، تنفذ إلى سويداء فؤاده ! .. فهى إنما تغنى دائما للآخر ... إنه ما زال يسمع فى الصباح عين الأغنية من « كارمن » :

« الحب طفل بوهيمى لا يعرف أبداً قانوناً »

هذا صحيح ! ... وهو الآن يلقى جزاء اللعب مع ذلك الطفل البوهيمى ! ... إنه لم يعد يسمع حتى صوت ندائها للببغاء الصغير ! ... إن اسم « محسن » قد اختفى من فمها ، على الإطلاق ، وخطر للفتى أن ينظر إلى قفص الببغاء فوق نافذتها ، فأطل من نافذته فأخذه الروع ! ... لم يجد قفصاً ولا ببغاء ، أين العصفور ؟ .... أين « محسن » الآخر ؟ ... لا يدرى مصيره هو

أيضاً ، لعلها قذفت به كذلك إلى عرض الطريق ، وحزن الفتى لتلك الفكرة ! ...

ومرت ساعات ... ومرت أيام ... و«محسن» يعيش فى ألمه : كما يعيش الجريح فى دمه! ... وخطرت له خواطر ، وطافت به هواجس ! ... وانتهى من تأملاته الطويلة إلى عزم : أن يراها ويحادثها مرة أخيرة. آه للمحبين المدحورين ! ... كم يعقلون الآمال على ما يسمونه « المحادثة الأخيرة » ؟! ... إنهم لا يريدون أن يفهموا أن الشرح والمنطق والتفسير والإيضاح ، وكل وسائل الفكر والعقل ؛ — أشياء لا تفيد فى مسائل القلب ، وأن النعيم والجحيم إنما تفتح أبوابهما ، وتوصد على شبه ألفاظ سحرية ، لا معنى لها :

« افتح يا سمسم! ... اغلق يا سمسم! ... »

وسمع الفتى ذات عصر صوت غنائها وعلم أنها فى حجرتها ، فتجلد وذهب إلى بابها ، وطرق طرقة خفيفة خجلة ... ففتحت ... وما إن رأته حتى عادت ، فأغلقت فى وجهه الباب فى هدوء ، بغير أن تلفظ كلمة ! ...

فرجع الفتى أدراجه أحمر الوجه ؛ من أثر تلك الصفعة وجلس إلى مكتبه ، وأخفى رأسه بين كفيه ! ..

ومرت عليه ساعات أخرى ، وفكر مرة أخرى : لو أنه استطاع

فقط أن يكلمها ويفهمها ؟! ...

وحاول فى اليوم التالى أن يعيد الكرة ، فطرق بابها مرة ومرة ... فلم تفتح له ! ... وتوسل إليها أخيراً ، من خلف الباب أن تصغى إليه خمس دقائق ، يخرج بعدها ولا يعود ، بل إنه يعدها بترك المنزل كله ، والمضى بأمتعته إلى حيث لا تعلم ، لكنه لم يتلق جواباً ... فهى سماءٌ صمَّاءُ ، لا يصل إليها دعاء ، وهو عبد طريح على أرض الشقاء ، قد ارتكب خطيئة لا غفران لها ، ولا يدرى ما هى ؟! ...

وحدثته نفسه أحياناً بالثورة ، وود لو تنقلب كل ذرة من ذرات حبه إلى قنابل ، تتساقط محطمة ذلك الشىء الجميل ، الذى كان يسميه « سوزى » ! ... ولكن ، رباعية من رباعيات الخيام ، وقعت فجأة تحت بصره ، وهو يقلب الكتاب بين يديه ، لاهياً حالماً :

« إذا أردت أن تسلك
طريق السلام الدائم
فابتسم للقدر إذا بطش بك ..
ولا تبطش بأحد ! ... »

نعم ، فليبسم ، على الرغم من كل شىء ! .. حسبه أن قد ظفر بلحظة من هذا النعيم الذى كان يجهله ! ... نعم ، إن تلك المرأة

استطاعت أن تكشف له عن جانب من جوانب الجنة المجهولة فى كيانه ! ... فليكن من أمرها ما يكون ، فهو الآن يعلم بفضلها ما لم يعلم ! ... « جنة الأرض » هى التى أعطته مفاتيحها ، وأذاقته رحيقها ، ووضعت شفتيها إلى جوار شفتيه على حافة ذلك الكوب البلورى ، من الكوثر الأرضى !!..

لكنها قد طردته ؟ ... فما مصيره ؟ .. أيعود إلى السماء ؟! ...

وترك مجلسه ، واقترب من نافذته ، وأطل منها على نافذتها السفلى ، فوجدها موصدة ، ولكن الضوء ظاهر من زجاجها ؛ فهى فى حجرتها ذلك المساء ... لك ، كيف السبيل إليها ؟ ... إن بابها المغلق فى وجهه لا تخترقه صلاة ، ولا يفتحه بخور ! ... إنها الآن فى حجرتها كإله فى سمائه ، وقد احتجب بالسحب ، واعتصم بالشهب ؛ فلا يدرى أحد كيف يدنو منه ! .. وتأمل « محسن » السماء طويلا من نافذة حجرته العالية ، وقال متنهداً :

«آه!... أيتها السماء السابعة!..

إنى أراك وأحادثك ! ...

هذا من الطابق الخامس ! ...

أما فاتنتى ، التى كانت دانية منى ...
فهى نائية ... نائية الآن عنـى ! ..
آه ! ... لـــو أنها كانت فقـــط
فى السمــــاء السابعـــــة !؟ ..
لكنها ... فى الطابق الرابع !! ...

الفصل السادس عشر

سيدتى ...

لم يكن بد من أن أكتب إليك هذا الخطاب ... اطمئنى ، لن أطلب فيه شيئا ، ولن أرجو منه شيئاً ... إنى لست أخدع نفسى ؛ ولست أجهل حقيقة الأمر ! ... إنى منذ دخل المطعم مسيو « هنرى » ، ولحظت كيف تغير وجهك ، فهمت فى الحال أن ساعاتى عندك أمست معدودة ، ولعل كلماتى التى وجهتها إليك ذلك المساء لم تكن إلا صيحات التشبث بالحياة ؛ فإن كنت قد جرت فى القول ، وانطلقت بكلام أغضبك ، فإنى أطمع دائما فى أنك تصفحين ؛ كما صفحَت ، ولا ريب ، الملكة الجميلة « سميراميس » عن زلات لسان « أسيرها » يوم دعته إلى ليلة من ليالى النعيم ، مهدت فيها الفرش وأقيمت الموائد ، وقدمت « أطباق البفتيك » وتلاقت الشفاه على الأكواب ، وفاح عطر الـ « هوبيجان » من أعطاف الثياب وانتثرت خصلات الذهب على الوجوه ، إلى أن لاح الصباح ؛ فتغير وجه الملكة الجميل ، ووضع الأسير فى الأغلال ، ومشى به إلى

الموت ، وهو ذاهل ما زالت فى رأسه بقية من نشوة الليل ! ...

إن الذى كان يُلطف من غير شك ، وقع الأمر على ذلك الأسير أنه كان يعلم أن الملكة تلهو ، وأن الجلاد سيستقبله على باب مخدعها فى الصباح ؛ فهو لم يغتر ، ولم يغب عن عينه السكرى سيف المنية ، يبرق من خلف الكئوس ! ...

ولكن ملكات العصر الحديث يفعلن بأسراهن غير ذلك ؛ كل شىء عندهن مستتر مقنع ، « فهى » تضع على وجهها ذلك القناع الحريرى الأسود ، الذى يلبس فى « المساخر » ، وتجز خلفها أسيرها وهو مسحور بجمال عينيها الفاروزيتين ، تزهران فى السواد ؛ كأنهما نجمان بازغان فى صدر الليل ! ... وتسير به إلى خلوة يقرآن فيها صفحات الحب منفردين ويلتصق فيها الوجه الحار على الوجه المورد ، ثم تجذبه إلى ضجيج الناس والطرقات ، وقد خيل إليه فى هذا الحلم أنهما فى « فينسيا » أيام « الكرنفال » ؛ وكأن كل شىء حولهما راقص ، وكأن على رأسيهما تلك التيجان من « الكرتون » الفضى الذهبى ... وكأن حبال الورق « السربنتان » الخضراء الحمراء تشد جسميهما ؛ أحدهما إلى الآخر فى رباط ، خيل إلى الأسير ، وهو غارق فى أحلامه أنه وثيق لن ينقطع ! ... ولبثا هكذا مرتبطين بتلك « الحبال » يذهبان بها فى كل مكان ؛ فى المطاعم : حيث

« البورجونى » المعتق ، وفى السينما : حيث القبلات فى الظلام !...
عجبا ! ... أكل هذا لم يكن حبا ؟! ... من قال ذلك ؟ ... ومن
أذن للأسير فى أن يشك ؟... حقيقة إنه لم ير كل ما خفى من وجه
« الجميلة » فهى لم تخلع بعد قناعها !... لكن ماذا يهم ؟ إنه يؤمن
بصدق هاتين الفاروزتين اللامعتين !...

وجاء الصباح ؛ وطلعت الشمس ، وغارت النجوم وأفاق ذلك
الحالم ؛ فلم يجد حوله أحدا ، غير كناسى الطرق يكنسون بقايا
الكؤوس المحطمة والتيجان الممزقة ، وأكوام « حبال » الورق ذى
الألوان ... التى كان يحسبها قديرة على أن تربط الأجسام طول
الأعوام ... أين ذهبت « الملكة » ؟... لا يدرى !... كل ما بقى منها
هو قناعها الحريرى الأسود ملقى تحت أقدام المائدة !...

آه يا سيدتى !... لماذا فعلت ذلك ؟... ولماذا لم تخبرينى
« بشروط » اللعب من أول الأمر ؟... لو أنى عرفت هذا الوضع
للأشياء ، لهان كل هذا ، ولكن المروع فى الأمر أنى أخذت كل شىء
على سبيل الجد !...

إن من السهل على عقليتى الشرقية البسيطة ، أن تعيش فى الأحلام
كما تعيش فى الحقائق ، وإنها لتأبى أن تؤمن بانهيار الأشياء بمثل هذه
السرعة !..

لقد كنت أنت ، من غير شك ، تعلمين أن هذا كله ليس سوى عبث لن يدوم طويلا ، ويوم كنت أعتقد أنا أنى إنما أحيا فى جنة الأرض الجميلة ، كنت تعرفين أنى إنما أحيا فى مهزلة مبتذلة سخيفة ! ...

لقد هبطت الأرض ، صافى النفس ، نقى القلب ؛ كما هبطها ذلك الإله الهندى « ماهادوفا » الذى تروى خبره الأساطير الهندية : لقد نزل الأرض ؛ كرجل من الرجال ، يرقب أعمال البشر بين البشر ، فقابل فتاة جميلة حياها وسألها عن أمرها ، فقالت إنها راقصة من راقصات المعابد ، ورفعت « صفاقاتها » « صنجاتها » بين أصابعها ، ورقصت له ألف رقصة ورقصة ... ثم ركعت أمامه وقدمت له أزهاراً ، وقادته إلى مسكنها ! ... وهناك جعلت تعنى به ، جاهلة حقيقة أمره ، وتكشف له عن قلب نادر نبيل ، على الرغم مما يحيط به من أدران ، وعاشا فى سعادة الأرض ، الزمن الذى تسمح به سعادة الأرض ! ... وذات صباح استيقظت الفتاة فوجدت حبيبها إلى جانبها ميتاً ، فبكته بكاء مراً وجاء الناس والكهنة ، وأحرقوه ؛ كما يفعل الهنود بموتاهم ، فاسرعت الفتاة ، وألقت بنفسها إلى جانبه فى اللهب ، فأصعدها معه إلى السماء ! ...

تلك قصة الفتاة الهندية ، أما الفتاة الأوربية اليوم ، فإنها تفعل غير

ذلك ! ... إنها أعقل من أن تلقى بنفسها فى اللهب ، من أجل الذى تحب ... أما من لا تحب ، فهى تعرف كيف تجعله هو اللهب ، وهو الحطب الذى يلقى فى المدفأة ؛ كى ينشر الحرارة فى مسكنها المغطى بالجليد ! ... خيل إلىّ يا سيدتى ، حقيقة ، أن ريحاً باردة قد هبت على ما كان بينك وبين مسيو « هنرى » فى يوم من الأيام ، وكان ينبغى أن أدرك أن قلبك يومئذ ، كان فى حاجة إلى الدفء ، وكان ينبغى أن أعلم أن المكان المعدّ لى ؛ إنما هو « الموقد » ! ... وأن هذا الوقود « الحى » ، ينبغى أن يبقى حتى يحترق بأكمله ، ويصبح رماداً ، وتنتهى مهمته ؛ فتكنس ذراته ، وتطرح فى الهواء ! ...

لست أحب يا سيدتى أن أتهمك « بالأنانية » ، ولكن عتبى عليك لا يعدو أمراً واحداً صغيراً : كان يحسن بك أن تخبرينى بمهمتى ؛ حتى أحترق على علم ، وأفيد الغير عن رضا ، ولكنك شئت أن تسخرى بى من تحت « قناعك » حتى تكون لك المتعتان ! ...

لا تحسى أنى حانق عليك ! ... على النقيض ... إن من حقك أن تصنعى الذى صنعت ؛ فالحياة عندك متاع ! ... وإنى أحب لك السرور من أعماق قلبى ، وإنى لست نادماً على ذلك القلب ، الذى قدمته إليك فى احترام ؛ فألقيت به فى المدفأة ! ... إنه لك على كل حال ... إنه كان لك ، تفعلين به ما تشائين ، وقد فعلت به

ماشئت ! ... إنما الذى يؤلمنى الآن : هو حياتى بعد ذلك ! ... لقد أسرفت فى الخيال ، فجعلت منك كل جنتى ، وعشت هذا الخيال ، وليس من الهين علىّ أن أعيش من فورى فى شىء آخر ! ... إنى مثل ذلك « الملحد » ، الذى طرد حديثاً من حظيرة « الإيمان » فتشرد بعد ذلك « بقلبه » ، لا يدرى أين يسكنه ! ... مثله مثل صعلوك من صعاليك الحياة ، إذا طلع النهار انساق إلى ترّهات العقل ، حتى يجن الليل ، فأوى « بقلبه » إلى حيطان « العقيدة » ينطرح فوق الأفاريز ...

شأنى الآن هكذا ... أعلم أنك الآن شىء بعيد عنى بعد النجوم ... ومع ذلك ما زلت أعيش معك ! ..

منذ تلك الليلة الحاسمة فى المطعم إلى اليوم ، وأنا لا أنام قبل أن أسمع صوت المصعد ، يقف على « طابقك الرابع » وأصغى إلى صوت قدميك الصغيرتين ، تخطوان فى ذلك الممر الطويل ، إلى أن يفتح بابك ويغلق ؛ فأعلم أنك قد عدت ، فأسرع إلى نافذتى أنظر إلى الضوء المنبعث من زجاج حجرتك ، وأظل على تلك الحال ساهرا ؛ حتى تطفأ أنوارك وتنامين ، وعندئذ تنام عينى ؛ كأنما أنت التى تأذنين لها فى النوم ! ... لا تحسبى ما أقول مبالغة منى ! ...

لا ، إن كثرة الترقب واعتياد التربص ، قد أكسبا أذنى مراناً

غريباً ، على سماع أصوات المصعد ، والخطوات والأبواب ، مهما دقت ومهما اختلطت ! ... إنى بأذنى أستطيع الآن أن أميز وقع خطواتك من بين مئات ، إنى لم أر وجهك منذ تلك الليلة المشئومة ؛ لأنى لم أجرؤ على النظر إليك ، ولكنى أقنع بعالم الأصوات التى تصدر عنك ، وتصلنى بحياتك اليومية ؛ العجيب فى الأمر أنى أعلم أن كل هذا حمق غير مجد ، ومع ذلك أفعله ! ... وأعجب منه أنى أحصى عليك خفية كل حركاتك ؛ فأعلم أنك تلك الليلة سهرت أكثر مما ينبغى ! ... لست أدرى أين ؟ ... والليلة التالية عدت مبكرة على غير عادتك ! ... لست أدرى لماذا ؟ ...

معذرة ، هذا السلوك المعيب منى ، إنما أنا رجل شريد ، طرد من قصر « الحب » السحرى ، فهو يلجأ فى يأسه إذا جن الليل إلى الحيطان والأفاريز ! .. ولقد فكرت بالفعل فى ترك هذا النزل والانصراف إلى شأنى ، وربما فعلت ذلك فى يوم قريب ! .. لكنى حتى الآن لم أقو على ذلك ! ...

إنى أفهم الآن موقف آدم عقب إخراجه من جنة السماء ... إنى أتخيله قد لبث — بغير حراك — فى الموضع الذى هبط فيه ، ومرت به ليال وأيام وهو ينظر إلى السماء ، يرقب كل حركة فيها : إذا رعدت ؛ فهو صوت أبوابها ، تفتح لتناديه من جديد ، وإذا لمع البرق ؛ فهى ابتسامة رضا قد يعقبها انفراج المحنة ... وإذا تساقطت الشهب : فهى

همسات غضب ما زال قائما ، وإذا استدار البدر ؛ فهو شفيع وبشير بعودة الهناء القديم ! ... وكر الزمن ، وآدم يتمرغ فى مكانه بين اليأس والرجاء عند ذلك المهبط من الأرض ، يمسح وجهه بأعتاب النعيم ، إلى أن انتزعته غريزة « الحياة » من هذا القنوط الطويل ، وأرغمته على النهوض ، فقام يدب فى الأرض ، ويعيش كما تعيش الأحياء من المخلوقات ! ..

إنى لست أعرف كم لبث آدم فى الفردوس من زمن ، وإنى لأتوق إلى معرفة ذلك ، ولكن الذى أعرفه على التحقيق : أن جنتى أنا دامت أسبوعين ، حسبتهما حساباً دقيقاً ، بالساعة والدقيقة ! ... منذ الليلة التى ذهبنا فيها معاً إلى مطعم « يوكاردى » ، إلى الليلة التى خرجت فيها وحدى من مطعم « الأوديون » أسبوعان من النعيم ، هما كل زادى ، وكنزى ...

وبعد ... فإنى قد أطلت عليك كثيرا ، وليس من حقى أن أسلبك كل هذا الوقت ؛ لتطالعى حماقاتى ! ... وليس من حقى كذلك ، أن أنتظر منك رداً على هذا الخطاب الطويل ؛ فحسبى منك — براً وكرماً — أن تقرئيه فى ساعة فراغ !... إنه على أى حال نوع من اللهو ، وهو على كل حال صائر إلى « المدفأة »! ... وإن كنت أرى أن « الشتاء » قد انقضى ؛ فقد ظهرت عندك بشائر الربيع ! ...

أمس رأيت على نافذتك آنية ، يبسم فيها زهر « الكرز » فى أغصانه الرفيعة الأرجوانية ! ... فذكرت أغنية « سان سانس » :

الربيـــع جـــاء ! ...

يحمـل الرجـــاء ! ...

إلى قلوب العشاق ! ...

ما أكذب هذا الشعر ! ... هذا الربيع ، على غير أمل الناس فيه إنما هو الذى جاء ينتزع الرجاء ... ومع ذلك فإنى أستقبل بوجهى نسماته العاطرة ، ولا أرجو منه شيئاً كما يفعل الآخرون ، إنى أخشاه كما خشيه « حافظ الشيرازى » :

حبـــى نسيم الربيـــع ،

قـادنى إلى الصحـــراء ! ...

لقد حمل إلىّ النسيم عطـره ،

لكنه أخذ منى راحتى ! ...

إلهى ! .. إن هـذا الجمـــال

الـــذى لا قـــلب لـــه ...

ليفعم بـالأسى قلـوب عشاقـه

لقد جثوت فى الطريق الـذى

عفرته أقدامها ! ...

لـكنها لم تـدن منـي ؛

لقد ارتفعت توسلاتى وتنهداتى ،

فأزعجت نوم الطيور والأزهار !

لـكنها لم تفتح عينيها .

بالأمسِ مسَّ الكوب شفتيها ،

وقال : إنه يعطى الحياة ! ..

فقلت : لا بل هى التى أعارته الحياة

ومع ذلك ، لو أنى أمامها

مت محترقاً ! ...

لما أطفأت لهبى بأنفاس شفتيها !

ما أصدق هذا الشعر ! .. كل كلمة فيه ؛ كأنها عاشت حياة آدمية ! ..

أخيراً أستأذنك فى طرح القلم ، فإن الفجر قد بدا من النافذة ، وأخشى أن تغضبى لمجرد أنى اختلست طيفك ليلة ! .. أرجو مرة أخرى أن تغفرى لى هذه الثرثرة ... فأنا لست خيراً من « محسن » الآخر فى شىء ! ... أعنى « الببغاء الصغير » ! ... إنى لم أعد أرى قفصه فى نافذتك ، فلعله حى برزق ، إنى أيضاً حى أرزق .. لقد

تحققت أمنيتى ، وتساوينا فى عين الحظ والنصيب « البغاء الكبير » و« الببغاء الصغير » ! ... ألا تذكرين ؟ ... كل ما يحزننى من أمر « محسن » الصغير أنه هو أيضاً ، وقد أصبح بعيداً عنكِ ، لا يستطيع هو أيضاً أن يحييك كل صباح بذلك الصفير المعتاد مردداً :

« أحبك ! ... أحبك ! ... أحبك ! ... »

« محسن .... »

الفصل السابع عشر

صديقى ...

على الرغم من خطابك ؛ الذى وجهت إلىّ فيه كثيراً من اللوم ، فإنى ما زلت أدعوك « صديقى » ... أوَلسنا صديقين ، ما دمنا نشكو من عين الداء ؟ ... إنى لم أستطع اليوم منع نفسى من الرد عليك ؛ بل لقد هممت فعلا بزيارتك هذا الصباح ، غير أن خطابك وما فيه من صواب ، وما جاء به من عتاب ، — قد أشعرنى بقبح موقفى طول الأسبوعين « المعروفين » ، ولقد عدت إلى حجرتى بعد تلاوة كلماتك ، وأنا حقيقة متألمة ، ولقد وددت لو لم أعش قط هذين الأسبوعين ! ... إنى خجلة ، ولا أستطيع أن أقابلك وجهاً لوجه ! ... كيف السبيل إلى محو كل هذا من ذاكرتك وذاكرتى ؟! ...

نعم ، لست أنكر ، أنى كامرأة تحب بكل جوارحها ؛ قد كنتُ حقاً « أنانية » ! ... إنى فكرت بالفعل ذات يوم فى أمر قصرفاتى ، وتنبهت إلى ما فيها من ضرر وشر ولكننى مع ذلك أقدمت على هذا

الشر ، آملة أنك لن تعجز عن الانفصال عنى ! ... نعم ، أرجو أن تثق كل الثقة أنى عندما فكرت فى كل هذا ، لم يخطر لى قط على بال أن الأمر سيصل بك إلى مثل هذا اليأس ! ...

صدقنى ، إنى محزونة حقاً لهذه النتيجة ! ... وإنى ، من أعماق قلبى ، أبدى لك شديد أسفى ! ...

لكن ... ماذا عساى أستطيع أن أفعل ؛ لأنال الصفح ؟! ... إن آلامك تترك فى نفسى ألماً عميقاً ! ... وأرجو منك أن تثق بذلك ! ...

وبعد ، أتقبل منى أن أمد يدى وأصافحك ؟ ...

« سوزى ديون ... »

حاشية :

سألتنى عن الببغاء الصغير ، وقلت إنك لم تعد ترى قفصه فى نافذتى ! ... هذا صحيح ! ... إنه ليس عندى الآن ؛ فإن أمر طعامه وشرابه ، والالتفات إليه ؛ — لما يحتاج إلى وقت ، لا أستطيع أن أكرسه له ، فسمحت لنفسى أن أهديه إلى « كلوتيلد » حارسة المقاصير ، وقد أوصيتها أن تعنى به كل العناية ؛ فكن مطمئناً ! ...

« س ... »

الفصل الثامن عشر

ترك « محسن » مسكنه فى نزل « زهرة الأكاسيا » واستأجر حجرة فى النزل الذى يقطنه صديقه « إيفانوفتش » ، وكان الروسى قد اشتدت عليه وطأة المرض ؛ فلم يشأ الفتى إزعاجه بكثرة الكلام فلزم هو أيضاً حجرته ، لا يخرج منها إلا فى الصباح ، يقطع شوارع الحى صامتاً ، ثم يعطف على باعة المأكولات يوم السوق ، فيشترى « كيلو جراماً » من الأرز وموزة واحدة ، يعودبهما إلى حجرته حيث يهيئ غداءه بيده ! ... ذلك شأنه أكثر الأيام ؛ فقد نضبت موارده من طول الإنفاق فى المطاعم الجيدة ودور السينما والمشارب ، وهو الآن لا يستطيع حتى تناول الأكل فى مطعم الحى الحقير ! ... إنه الآن يدفع ثمن الأسبوعين اللذين قال إنهما « كل زاده وكل كنزه » واللذين قالت « هى » : « إنهما شيء تتمنى لو يمحى من ذاكرتها وتود أنها لم تعشهما » ! ...

ووقف الفتى أمام النار فى أحد أركان حجرته ، يرقب فوران الماء فى آنية الأرز « الألومنيوم » ، وهو صامت مفكر شأنه فى كل يوم من

تلك الأيام التى مضت كأنها أعوام ! ... يتبخر الماء فيصب غيره فى الإناء ... ويتبخر فيصب غيره ... والأرز لا ينضج ؛ فيأكله آخر الأمر شبه حصى ! ... ما من مرة نضج معه هذا الأرز ! ... وما من مرة خطر له أن يسأل أحداً فى طريقة طهيه ، أو يغير هذا اللون من الطعام ... لماذا يفعل ذلك ؟ ... ليس للأكل الآن مذاق فى فمه ؛ وإن « الكيلو » من هذا الأرز الرخيص ليكفيه خمسة أيام ! ...

وكان لحجرة « محسن » الجديدة نافذة لم يفتحها قط منذ مجيئه ولم يدر على أى شىء تشرف ! ... لا يريد أن يعرف ... إن نافذة قلبه قد أغلقت ... وما من شىء يسترعى التفاته الآن ، غير أسعار « الأرز » مدونة على البطاقات فى الحوانيت ، وغير عناوين الكتب القديمة ينظر إليها معروضة فى المكاتب ، دون أن يمسها ... وكان أحياناً يلمح فوق غلاف بعض الكتب فقرة أو عبارة أو بيتاً من الشعر ، وضع على سبيل الاستشهاد ، فيجعل منه « نغمة » ، يظل فكره يرتب عليها « تقاسيم » طول النهار ، وكان يجد فى هذا شيئاً من السلوى ؛ غير أن بصره وقع ذات يوم على كتاب ، جعل فى رأسه هذا القول لشاعر يابانى :

إنما يبنى الشاعر سعادته على الرمال ،
ويسطر أشعاره فوق ماء الجدول

الجارى ! ...

نعم ... هنا كل البلاء الآدمى ! ... ألا يمكن للنفس الشاعرة أن تقيم هناءها على دعائم أثبت قليلا من هذه الرمال ، التى تغرق فيها الإبل ... وتكتب أغانيها على صفحات أبقى من صفحات هذا الماء ، التى تطويها فى شبه طرفة العين أنامل الهواء ؟ ...

نعم هنالك سبيل واحد : لا ينبغى أن نبنى شيئاً جميلا فوق هذه الأرض ! ... هذه الأرض المتغيرة المتحركة برمالها ومائها وهوائها ! ...

وفطن الفتى ، أن هنالك حقاً نوعاً من الهناء ، قد عرفه يوماً ، هو هناء الصفاء ! .. هذا الصفاء الذى لا يوجد إلا فى الارتفاع ! ...

* * *

وأحس الفتى فعلا ؛ كأنه قد خف وزنا ، وكأنه يرتفع ، وكأنه يبتعد عن هذه الأرض ؛ — ليعود إلى السماء ، إلى سمائه التى كان قد هبط منها !! ...

ولعل « الأزر » أعانه على ذلك ؛ فإن « الزهد » هو سلم « الصعود » !! ..

وأقبل الفتى بعدئذ على غذائه الحقير الضئيل فى لذة روحية ، وبسمة راضية وضاءة ، أنارت له مسالك نفسه المظلمة ، وذكرته بسروره فى صباه يوم كان يقتات « بالفول النابت » ، ويجلس بكتابه كل يوم إلى جوار ضريح « السيدة زينب » ! ...

لم يكن شىء يعكر عليه صفاءه الروحى يومئذ غير حارس المسجد ، ذلك الشيخ المتأنق ، فى عباءته الثمينة ، وشعره المخضب بالحناء ، وعيونه الكحيلة ، ينظر بها إلى صندوق « النذور » بين يديه ، وغير سجاجيد المسجد الغالية وثرياته الكبيرة . لماذا كل هذا ؟ !.. إن الفتى لم يكن قط يخالجه شعور اللذة العليا إلا وهو فوق الحصير ، حيث كان يتخذ مكانه دائماً ، لا فى قاعة الضريح ذاتها حيث الفرش والرياش ، وبقية تلك المظاهر الحمقاء لذلك الاحترام الكاذب ، والخشوع الزائف ؛ إنما فى تلك الردهة الخارجية ، التى طرح الحصير على بعض أرضها ، وترك البعض الآخر عارياً نظيفاً ، كالنفس النظيفة العارية ! ... كان يحس الفتى هنالك أنه أقرب إلى روح السيدة الطاهرة ! ...

وجعل « محسن » طول يومه هذا — يقلب مثل هذه الأفكار ، وعاوده شوق وحنين إلى المسجد ، أو إلى بيت من بيوت الله . وتذكر الكنيسة التى دخلها يوم تشييع جنازة زوج ابنة مدام

« شارل » ! ... نعم ، إن فيها أيضاً قد أحس يومئذ عين إحساس الصعود ، لكن ، تلك المراسيم والطقوس سرعان ما جذبته إلى الأرض ، لتوقعه فى ذلك الحرج ، الذى وقع فيه ذلك اليوم ! ...

نعم ، كلما همت روح الإنسان بالتحليق نحو الأعالى كبلتها أكاذيب الإنسان ، وأنزلتها إلى التراب ، كل شقاء الإنسانية أنها لا تستطيع أن تترك شيئاً عظيما ، ذا قداسة ، بغير أن تلبسه ثياباً مبتذلة مضحكة ؛ من حمقها وزيفها وغرورها ؟! ...

لماذا أراد الناس أن يجعلوا « الله » فى حاجة إلى السجاجيد الفارسية يفرش بها بيوته ؟! .. و « السيدة » فى حاجة إلى « النذور » والنجف والشمع ؛ كأنها لا تستطيع النوم فى الظلام ، ثم ذلك « القمقم » الفضى فى الكنيسة ، وتلك الإشارات والعلامات ، لماذا كل هذا ؟؟ ... حتى « الموسيقى العظيمة » ، التى استطاعت أن ترفع الإنسان إلى بعض القمم ، سرعان ما جعلوا لها ثياب سهرة ؛ ترتدى من أجلها ، وقواعد وتقاليد ؛ لا بد من مراعاتها ! ... وتنقلب الأمور على مر الزمن ، فينسى الناس الأصل والجوهر ، ويذكرون الفرع والعرَض ... فإذا كل التفاتهم إلى ثياب السهرة دون « الموسيقى » ، وإذا كل عنايتهم بالمظاهر والمجاملات ، دون الإيمان والعبادات ، ولا يستثنى من بين هؤلاء إلا الفقراء التعساء الذين جاءوا

حقيقة للصلاة ، ومن بين أولئك — إلا الهواة — زبائن أعلى « التياترو » ، الذين حضروا حقيقة من أجل الموسيقى ! ..

إن « الإخلاص » للدين والفن ، يستوجب « التجرد » ! ...

وذكر « محسن » « بيتهوفن » ، وتلك « السانفونية الخامسة » ، التى كان قد سمعها ، وذكر ذلك الجو العلوى الذى عاش فيه ذلك اليوم ؛ ... فحدثته النفس بالذهاب إلى « الكونسير » ! ...

نعم ، فليذهب ولو أدى ذلك إلى حرمانه أكل الموز شهراً بأكمله ! .. لا لزوم للفاكهة ؛ إنه يستطيع أن يكتفى بالأرز أسبوعاً ... وأشرق وجه الفتى لهذه الفكرة ، وأحس كأن برداً وسلاماً يهبطان قلبه ؛ ويضمدان جروحه ! .. إنه الآن يشعر ببعض القوة ، و لم يعد يخشى شيئاً ! ... هو الذى كان قد حرَّم على نفسه ، خوف الضعف ، ذكر الجميلة قاطنة نزل زهرة « الأكاسيا » ! ؛ — تلك التى أجهزت على أمله ذبحاً ، بخطاب رقيق رقة حد السكين المسنون ! ..

نعم ، الآن .. بقليل من الموسيقى يستطيع أن يعتصم بالسحب ، ضد هذا الحب الأرضى ، الذى وضع أنفه فى الرغام ! ...

وذهب « محسن » إلى مسرح « شاتليه » فوجد من حسن حظه « برنامجاً » موسيقياً حافلا : « پارسيفال » و« سحر يوم الجمعة

الحزينـة » ؛ لريـتشارد فاجنـر ، و« السانفونيـة التاسعـة » « لبيتهوفن » ! ...

وكانت نقوده لا تسمح له بأكثر من مكان للوقوف بأعلى المسرح فما تردد ! وكان حريصاً دائما على اقتناء ذلك الكتيب الصغير الذى يباع فى الردهة ؛ فإن فيه تحليلا دقيقاً فى أكثر الأحيان للقطع التى تعزف ، وبياناً عن ظروف وضعها ، ونبذاً من تاريخ مؤلفيها ؛ — فما أحجم عن شراء نسخة ، وأسرع يتخذ له مكاناً ، تحت مصباح من مصابيح الكهرباء ، وجعل يطالع على عجل هذه السطور :

« لقد أراد « فاجنر » أن يصور بموسيقاه ، قصة المسيح ؛ إذ جاء يحمل إلى الإنسانية ، التى نخرت فيها « الأنانية » ناموس « الحب » ، الذى يخلصها من الخطيئة ! ... ولقد جاء فى خطاب خاص أرسله « فاجنر » إلى صديقه الموسيقى « لست » : كيف نبتت فى خاطره فكرة تأليف هذه القطعة ؟! ووصف المشاعر التى أثارتها فى نفسه ذكرى الجمعة الحزينة فى يوم من أيام الربيع ، حيث كان فى مدينة « زوريخ » : « لأول مرة استيقظت يوم الجمعة المقدس على شمس مشرقة ، فنظرت إلى الحديقة حولى فألفيتها خضراء ، تصدح فيها العصافير ، فجلست على عتبة البيت أنعم بهذا السلام ، الـذى

انتظرته طويلا ! .. وأثر فى نفسى هذا الصفاء الذى يكتنف الأشياء ، فتذكرت من فورى ، أن اليوم هو يوم الجمعة المقدس ! .. وعند ذاك ، خطر لى أن أضع هذه القطعة ! ... » .

وانقطع « محسن » فجأة عن القراءة ، فقد أطفئت الأنوار ، ووقف « المايسترو » ، ينقر بعصاه الرفيعة نقراً خفيفاً على قمة مصباحه الأخضر ؛ تنبيهاً للعازفين ، وبدأ « الأوركستر » يعزف مقدمة « بارسيفال » :

نغمة ترتفع منفردة أول الأمر ، لا يصحبها شىء ؛ كأنما هو صوت واحد يتكلم ، وسط سكون السكون ! ... صوت ، فى عين الوقت ، إلهى وبشرى ! ... وتمضى تلك النغمة حاملة فى أعماقها بذور الألحان الدينية ، التى تتركب منها القطعة ، إلى أن تقابلها تلك الأقوال المقدسة : خذوا ، وكلوا ؛ هذا هو جسدى ! ... خذوا ، واشربوا ، هذا هو دمى ! ... ثم يسمع من « الكواتيور » شبه رعدة مبهمة ، بين عديد من الانغام السريعة المتعاقبة ، ورنين الصناجات المكبوت ؛ كأنما هو صوت طليق ممتد ، يخفت شيئاً فشيئاً تحت قباب كاتدرائية عظيمة ! ...

واستمر الأداء ، و« محسن » ليس على هذه الأرض ، إلى أن أشار « الأستاذ » بعصاه إشارة الانتهاء ، وانطلقت الأيدى بتصفيق كأنه

الرعد ، فتنبه الفتى ، وقام الناس يدخنون فى فترة الاستراحة ويتحادثون ... وبقى «محسن» واجماً فى مكانه ، ولمح على المسرح حركة دخول أفراد مجموعة المنشدين « الكورس » من سيدات ورجال ... ينتظمون فى أماكنهم ، فرفع الكتيب إلى عينيه ، ليقرأ ما قيل عن قطعة « بيتهوفن » ويهيئ نفسه للمثول بين يدى هذا القلب العظيم ، كى يسمع منه ، ويفهم عنه ! .. وقرأ الفتى هذه الصفحة ؛ وبلغ فن « بيتهوفن » فى « السانفونية التاسعة » غاية ما يستطيعه بشر فى عالم البناء الصوتى ، ولقد أخرج هذا العمل فى تلك المرحلة من حياته — التى ابتلى فيها بالصمم — كارثة جاء ذكرها فى وصيته التى كتبها فى أكتوبر سنة ١٨٨٢م ، على أثر أزمة قوية من أزمات اليأس ، تبدو من هذه الأسطر :

« إلى شقيقىّ « كارل » و« جوهان » بيتهوفن : أنتما يا من كنتما تحسبان أنى إنسان حقود عنيد أكره الناس ... ما أظلمكما ! ... إنكما لتجهلان السبب الخفى لكل هذا الذى ظهر لكما من أمرى ! ... إنى ، منذ الطفولة ؛ كنت أحس أن نفسى وقلبى يتجهان بطبعهما إلى الخير ! ... إنى كنت دائماً على استعداد للقيام بأعمال عظيمة ، ولكن .. لا تنسيا أنى ، منذ أعوام ستة ، أصبت بداء قاس ، زاده خطراً عجز الأطباء ! ... وأنى ألفيت نفسى مرغماً

على العزلة قبل الأوان ، وعلى إنفاق بقية حياتى بعيداً عن العالم ! ... ولقد حاولت أن أتجاهل أحياناً ما نزل بى ، ولكن التجربة المؤلمة كانت تذكرنى دائماً بأنى قد فقدت السمع ، ومع ذلك فإنى لم أستطع أن أتجرأ مرة وأقول للناس : تكلموا بصوت عال ! ... صيحوا ... « إنى أصم ! » .. آه ، كيف أعترف بهذا وأعلن للناس ضعف حاسة كان ينبغى أن تكون عندى أقوى مما عند جميع الناس ، حاسة كنت أملكها — فيما مضى — على أكمل نمو ، وأدق تركيب ، وأرهف شعور ؛ مما لم يتيسر مثله إلا لقليل غيرى من الموسيقيين ! ... كلا ! ... لا أستطيع ؛ لهذا أرجو أن تصفحا عنى إذا كنت اليوم أهجر — كما تريان — هذا العالم ، الذى كنت فيما سبق أمرح فيه بكل نفس راضية ! ... إنى لشديد الإحساس بمصيبتى ، وإنى من أجلها ينكرنى الجميع ! ... لم يعد الآن من حقى أن أنشد الراحة فى صحبة إخوانى الآدميين ! ... انتهت مسرات المحادثات اللطيفة ، ولذات المناقشات الرفيعة ... انتهت المصارحات القوية ، وتبادل المناجاة الحارة ؛ حالى الآن لا تسمح لى بارتياد المجتمع إلا بالقدر الذى تحتمه الضرورة القصوى ! ... ينبغى إذن أن أعيش مطروداً منبوذاً ! ... أى إذلال يجرح نفسى أحياناً ، إذ أرى إلى جانبى أحد الناس ، يصغى إلى أنغام مزمار يعزف عن بعد ، لا أستطيع أنا أن

أسمعها ، أو أناشيد راع ، لا أستطيع أن أسمعها كذلك ... »

يروى أحد أصدقاء « بتهوفن » أنه فى صباح صيف ١٨٠٢ م ، استرعى التفات صديقه إلى راع فى الغابة يعزف على ناى من قصب ألحاناً شجية ، فأبدى « بتهوفن » جهداً مرهقاً ، ليسمع شيئاً ، فلم يستطع ، ورفق به صديقه ، فكذب عليه ، وزعم له أنه هو أيضاً لا يسمع شيئاً ، لبعد الصوت عنهما ، ولكن « بيتهوفن » فهم الحقيقة وغرق فى حزن عميق ! ...

« مثل هذه الحوادث ، كانت تلقى بى على أعتاب اليأس ، وكادت تغرينى بأن أضع حداً لأيامى ! ... ولكنه الفن وحده ، هو الذى أبقى على حياتى ... آه ! ... إنه ليشق علىّ ترك هذا العالم ، قبل أن أعطى كل ما أحس داخل نفسى من مخلوقات ، لم تزل بعد فى طور التكوين ! ... آه أيتها القدرة الإلهية ! ... إنك لترين من عليائك ذلك القاع السحيق ، فى أعماق قلبى ! ... إنك لتعرفين أنه عامر بحب الإنسانية والرغبة فى عمل الخير .... يا شقيقىّ « كارل » و« جوهان » .. إذا انتهت أيامى ، وكان طبيبى الأستاذ « شميث » لم يزل حيا ، فالتمسا منه باسمى ، أن يصف دائى وأن يرفق ذلك بصفحاتى هذه ، فلعل الناس بعد موتى يصفحون عنى على الأقل ... أما إساءتكما لى ، فأنتما تعلمان أنى قد صفحت عنها منذ أمد

بعيد ... وكل ما أتمنى الآن ، أن تكون حياتكما أيسر من حياتى ، وأن تعفيا مما رزئت أنا به من متاعب ! ... وأوصيكما أن تعلماً أطفالكما « الفضيلة » ؛ فهى وحدها ــ لا « المال » ــ السبيل الحقيقى للسعادة ! ... وإنى أتكلم عن تجربة ، « فالفضيلة » هى التى كانت كل سندى فى محنتى ، وإليها وإلى « فنى » يرجع كل الفضل فى أنى لم ألجأ إلى الانتحار ... وداعاً ! ... وليحب أحدكما الآخر ! ... »

لقد كان « بيتهوفن » يعيش إذن فى ظلام السكون ، عندما أخرج « سانفونيته التاسعة » ، ولقد احتمل كل ذلك فى جلد ــ كما قال فى وصيته ــ ولقد خضع لحكم القدر فى شجاعة ؛ كما يقول فى مذكرات أخرى :

« الإذعان » ، الاستسلام ؛ الاستسلام ... فلنعرف كيف نستخرج الدرس الخلقى النافع من أفدح المصائب والكوارث ... بذلك نجعل أنفسنا جديرين بمغفرة الله ! ... »

لم يبق إذن لـ « بيتهوفن » من الحياة ، غير متعة « البصر » : عيناه وحدهما أمستا كل صلته بالطبيعة ، وقد انحصر كل فرحه فى إرسال النظر إلى وديان « فينرفالد » الخضراء ، يهيم فى غاباتها ملتمساً من الطبيعة العزاء ، آملا أن يجد فى صدرها كل قوى الحياة والخلق ،

صائحاً فى فضائها من أعماق قلبه تلك الصيحات التى وجدت مدونة فى أوراقه :

« يا رب الغابات ! .. يا ربى القدير على كل شىء ، إنى أحس البركات ، وأشعر بالسعادة فى هذه الغابات ، هنا كل شجرة من هذه الأشجار تسمعنى صوتك ! ... يا لها من روعة أيها المولى العظيم ! ... هذه الأحراش ، وهذه الوديان ، تفوح برائحة الهدوء والسلام ! ... هذا السلام الذى لا بد لنا منه ؛ لنستطيع أن نتفانى فى خدمتك ! ... »

ووقف « محسن » عن القراءة فى عجب وتأثر شديدين ! ... لكأن عبيراً يعرفه ، يهب من طيات هذه الكلمات ... إن هى إلا كلمات صادرة من النبع الذى صدرت منه كلمات أنبياء الشرق ...

وأطفئت الأنوار ، وتكلم « بيتهوفن » ... إنه لا يتكلم كبقية الناس ؛ لكنه يقيم من الأصوات عالماً ، لا تدخله ولا تسكنه غير الأرواح الخيرة المهذبة !... وتحددت أركان تلك « السانفونية » ووضحت للآذان والأرواح : هيكلا عظيما ، مشيداً على أعمدة نورانية ؛ من أنغام آلية ، وأصوات آدمية ! ...

و لم يتمالك « محسن » ، وأخذته رجفة ، وتصبب جبينه العرق ، نشوة عليا ؛ عندما ارتفعت الأبواق النحاسية إلى جانب صيحة

« الكورس » :

« قفـــوا متعانـــقين ! ..
أيتها الملايين » من البشر ! ...
أيها الإخـــــــوة ! ...
إن فـــوق النجـــوم أبـــاً
حبيباً إلى كل القلوب ! ... »

ولبث الفتى : مشدود الأعصاب ، متفصد الجبين ؛ فى شبه ذهول حتى عزف الـ « أليجرو » الختامى ، والتقت أصوات الرجال والنساء بصوت « الأوركستر » ! ... فكأنما أستار السماء قد انفرجت ليصل إلى آذاننا غناء الحور والملائكة ، مجتمعين فى جنة الخلود يلقون نشيد الفرح ، ذلك القبس الإلهى ، فرح الأنفس التى تعيش فى « الله » ! ...

الفصل التاسع عشر

نزل « محسن » الدرج ؛ ليخرج كعادته إلى الطريق ، يستنشق هواء ذلك الصباح الجميل ، فرأى باب حجرة صديقه « إيفان » مفتوحا ، وسمع سعاله ، فعطف عليه ، وضرب الباب مستأذناً ... فأذن له ودخل الفتى ، فوجد الروسى جالساً على سريره ، أصفر الوجه ، بين يديه كتب ثلاثة ، فقال له :

ــ كيف حالك اليوم يا مسيو « إيفانوفتش » ؟ ...

ــ بخير ! ..

ــ إنك تجهد قواك فى القراءة ، وأنت لم تزل مريضاً ! ..

ــ اجلس ! ...

قالها الرجل على نحو غريب ، عجب له الفتى ، ونظر بطرف عينه إلى الكتب ، وقرأ فى دهشة :

ــ « التوارة » ، « الإنجيل » ، « القرآن » ! ..

ثم التفت إلى « إيفان » وقال :

ــ عجباً ! ... إنك فيما أعلم لا تؤمن بشىء ...

فقال الروسى ؛ كالمخاطب لنفسه :

ـــ أريد أن أعرف : كيف استطاعت هذه الكتب الثلاثة أن تعطى البشرية راحة النفس ، وأن تغمرها فى ذاك الاطمئنان ؟! ... نعم ! ... إنى لا أومن بشىء ، وإنى أرى أحياناً الموت دانياً منى ، وفى يده « خرقة » ؛ ليمحونى كما يمحى رقم كتب بالطباشير فوق لوحة سوداء ! ... فأحتقر نفسى ، وأزدرى كل حياة إنسانية .. آه ! ... ما أسعد أولئك المؤمنين ، الذين ، يرون الموت مرحلة إلى حياة أخرى مجيدة جميلة ! .. إنهم لا شك ينظرون إلى الموت ؛ كأنه عربة « پولمان » فى قطار سريع ، يذهب بهم إلى نزهة « آخر الأسبوع » ... إن مثل هؤلاء لا يمكن أن يروا الحياة الإنسانية إلا أنها شىء عظيم ... لأنها تشغل الكون دائماً ، طول الخلود ، إنهم لا يستطيعون أن يزدروا أنفسهم هؤلاء الناس ! ...

ـــ ولماذا لا تؤمن أنت أيضاً بالحياة الأخرى يا مسيو « إيفان » ؟ ...

ـــ آه ! ... ثق أنى أريد ، فالرغبة والإرادة لا تعوزانى ... ولكن ... أمن الممكن لمثلى الآن أن يؤمن بالجنة والنار ؛ كما كان يؤمن بها المسيحيون فى عصر الشهداء ؟! ... إنهم كانوا يتقدمون للذبح ، ويلقى بهم إلى أنياب السباع وهم يبسمون ، راضين مقتنعين أن أبواب

الجنة مفتوحة لاستقبالهم ، مصغين إلى صوت المسيح يقول لهم من عل : « طوبى لكم ؛ إذ عيّروكم ، وطردركم ، وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين ، افرحوا ! ... وتهللوا ؛ لأن أجركم عظيم فى السموات !... »

— ومثل إيمان المسلمين فى عهد النبى فقد حدث فى موقعة «بدر » التى نشبت بين المسلمين وأعدائهم من قريش ، أن مسلماً ترك القتال وانتحى يأكل بلحاً فسمع النبى يقول : « لا يقاتل اليوم رجل ، فيقتل صابراً محتسباً ، إلا أدخله الله الجنة ! ... » فقذف الرجل بالبلح من يده ، وقام يصيح : « أفما بينى وبين دخول الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ؟! ... » ثم رمى بنفسه فى أحضان الأعداء ...

نعم ، يخيل إلىّ أن مثل هذا الإيمان لا يمكن أن يعرفه الغرب اليوم ! ... إن الشرق يوم أعطى الغرب هذه الأديان ، إنما أعطاها على النحو الذى ذكرنا ، فتسلمها الغرب ، وألبسها أردية موشاة بالذهب ، ووضع على رءوسها التيجان المرصعة بالماس ، وأقبضها صولجانات الجاه والسلطان والجبروت الأرضى ! ... إن الكنيسة فى أوروبا ، كانت — فى يوم ما — أعظم مؤسسة مالية ، وإن نظامها الرأسمالى لأدق نظام .. وإن ثروتها الطائلة لتسند ظهر أقوى البيوت المالية ، وتقوضها إذا شاءت فى طرفة عين ، فأين ذهبت كلمة

المسيح ؟! ... « ما أعسر دخول ذوى الأموال إلى ملكوت الله ؛ لأن دخول جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله !! ... »

— وأين ذهبت كلمة النبى محمد ؟ ... « إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة ، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة ، فاخترت لقاء ربى والجنة ! ... » ثم قوله أيضاً : « اللهم توفنى فقيراً ، ولا توفنى غنياً ... واحشرنى فى زمرة المساكين ! ... »

نعم ، لا شك أن المسئول عن انهيار مملكة السماء هم رجال الدين أنفسهم ! ... أولئك الذين كان ينبغى لهم أن يتجردوا من كل متاع الأرض ، ويظهروا فى زهدهم بمظهر المنتظر حقاً لنعيم آخر فى السماء ... لكنا نراهم هم أول من ينعم بمملكة الأرض ، وما فيها ؛ من أكل طيب ، يكنزون به لحماً ، وخمر معتق ، ينضح على وجوههم الموردة ، وتحت إمرتهم : السيارات يركبونها ، والمرتبات يقبضونها ! ... إنهم يتكلمون عن السماء ، وكل شىء فيهم يكاد ينطق بأنهم يرتابون فى جنة السماء ، وأنهم متكالبون على جنة الأرض . هؤلاء هم وحدهم الذين شككوا الناس فى حقيقة مملكة السماء ! ... إن كل ما بناه الأنبياء : بزهدهم الحقيقى ، وجوعهم ،

وعريهم ، مما أقنع الناس بأن هؤلاء الرسل إنما هم حقاً ينتظرون شيئاً في العالم الآخر ؛ جاء هؤلاء فهدموه ! ... وكانوا هم أقوى دليل على كذب مملكة السماء ، وخير دعاية لمملكة الأرض ! ... وأنسوا الناس بانغماسهم في هذه الحياة ، أن هنالك شيئاً آخر غير هذه الحياة ! ...

ــ صدقت في كل هذا يا مسيو « إيفان » ... إن مسلك رجال الدين قديشكك عامة الناس ... لكن أنت ... من كان مثلك على هذه الثقافة وهذا العلم .. إنك تستطيع أن تقيم إيمانك على لباب الكتب السماوية وحدها ، بغير حاجة إلى أحد ..

ــ وهذا ما أردت أن أفعله أيها الصديق ، منذ ليال وأيام ... غير أني ... ينبغي أن أصارحك ... لم أستطع .. لم أستطع مطلقاً ...

ــ لم تستطع ماذا ؟ ..

ــ آه ! ... لقد فسدت في رأسي كل تلك الصور الجميلة للحياة الأخرى ؛ كما تفسد زجاجات الصور « الفوتوغرافية » ، عندما ينفذ الضوء إلى حجرتها السوداء ... لست أدري سبباً لذلك ... يخيل إليّ أنها الحضارة الأوربية الحديثة ، لاتسمح للناس أن يعيشوا إلا في عالم واحد ... إن سر عظمة الحضارات القديمة أنها جعلت الناس يعيشون في عالمين ... لقد عرفت الحضارات « العلم » ، و « العلم

التطبيقى » ؛ فالحضارة التى تشيد الأهرام ، لا يمكن أن تجهل العلوم النظرية والتطبيقية ، ومع ذلك فإن ذلك العلم لم يفسد من الرءوس زجاجات الصور ، التى تمثل الحياة الأخرى — تلك الحضارات أسميها أنا « الحضارات الكاملة » ، ولكن آسيا وأفريقيا ارتبطتا بالزواج ، فى طور من أطوار التاريخ ، وأنتجتا مولوداً جديداً : هذه الفتاة الشقراء — التى تسمى « أوروبا » — جميلة رشيقة ذكية ؛ لكنها خفيفة أنانية ، لا يعنيها إلا نفسها ، واستعباد غيرها ! ...

وهنا قاطعه « محسن » قائلا كالمخاطب نفسه :

— نعم « أنانية » لا تعرف غير حياة الواقع ولا يهمها شقاء الغير ، ولا تحب الحياة إلا فى ... الحياة ...

فمضى الروسى يقول ، دون أن يفهم ما جال فى خاطر الفتى :

— نعم ، نعم ! ... هى كذلك حقيقة ... ، إن هذه الفتاة ترى المجد كله فى شىء واحد : أن تضع الأصفاد فى أرجل البشر ، وبدأت أول ما بدأت بأبويها : إفريقيا وآسيا ... أنكرتهما ، وحبستهما ... وانطلقت فى الحياة ، لا يحدها حد ، ولا يقوم لها شىء ... إلى أن انتهى بها المطاف فى بيت من بيوت الليل ؛ تديره ، وتشاهد فيه شجار السكارى ، يحطمون الكراسى والكئوس ! ... إنى أخشى أن تكون أوروبا موشكة على دفع الإنسانية إلى هوة ... إنها لتثوب أحياناً إلى

رشدها ، وترى مصيرها ؛ فتقع فى أزمة من أزمات الضمير : إنها لتستيقظ فيها الروح أحياناً فتشك فى نفسها ، ويخيل إليها أن مدنيتها الخلابة ليست إلا بهرجاً ، وأن علمها الحديث كله — وهو وحده الذى تتيه به على البشرية ، فى مختلف تاريخها ليس — من حيث القيمة العملية — غير « لعب » من صفيح وزجاج ومعدن ؛ قدمت للناس بعض الراحة فى أمور معاشهم ، ولكنها أخرت البشرية ، وسلبتها طبيعتها الحقيقية ، وشاعريتها ، وصفاء روحها ! ... إن السكك الحديدية والطيارات قد أعطتنا السرعة وتوفير الوقت ، ولكن ما فائدة ذلك ؟ ... ولماذا السرعة ... ؟ ... ولماذا توفير الوقت ؟! ... كأنما قد هبطت علينا شياطين تلهب ظهورنا بالسياط ! ... ما نحن إلا قطرات ماء فى نهر الحياة .. ما حظنا من سرعة التيار ، واندفاعة إلى البحر ؟! ... إنما حظنا الأكبر : فى التمهل حول الأعشاب النابتة ، والسكون عند شواطئ الجزر ، يداعبنا النسيم ! ... من الذى استفاد من هذه السرعة الملعونة غير قبضة من النهمين جمعوا فى أيديهم الثروات ، وسموا بالرأسماليين ! ... أما أنا وأنت وبقية الآدميين الوادعين ، فقد خسرنا تلك الرحلات الطويلة ، على ظهور الجياد أو الإبل ؛ ننزل فى كل مرحلة ، ننعم بالطبيعة فى أشكالها المختلفة ، وفى أوقاتها المختلفة ! ... نعم ، كسبنا السرعة ، ولكن خسرنا ثروة

النفس التى تنمو باتصالها المباشر بالطبيعة ، إنما اليوم نفرح بكلمة السرعة ، وننسى أنها ليست سوى إغفاءة ، نقضيها فى عربة قطار ، يمرق بنا فى نفق مظلم ، ويوصلنا فى وقت قليل إلى حيث أردنا . ولكنا لا نعرف بعد ذلك ماذا نصنع بالوقت الباقى ؛ فننفقه فى الحمق والسخف ... إن الطبيعة لتنتقم ، وإن كل وقت يسرق منها لا نجد له سوقا ننفقه فيه ، غير سوق النخاسة الخلقية ، والانحطاط الآدمى ! ... كذلك « السينما » — كما يقول « دوهاميل » — لا تعطينا غير الطبيعة محفوظة فى العلب ، أو قصصاً سخيفة ، تؤثر فى أعصابنا تأثير الأفيون ، « والراديو » وما يقدمه من قشور المعلومات وردىء الموسيقى ... كل شىء فى هذه المدنية الحاضرة يتآمر على قتل الفضائل الإنسانية العليا ، وصفاتها الآدمية السامية ، وقواها الطبيعية الكامنة ؛ بتعويدها التراخى والكسل ، باسم « الراحة الحديثة » ؛ حتى نامت كما ترى النفوس والأرواح ، وأصبحنا أمام ناس مصنوعين من « الألومنيوم » ، مصيبة المدنية الأوربية نزلت منذ استقرار الصناعة الكبرى ! ... هذه الصناعة التى شطرت المجتمع الأوربى إلى شطرين : فئة قليلة كل همها جمع المال ، وفئة كبيرة كل همها أن تقدم هذا المال فى مقابل لقمة ! .. الفئة الأولى لا دين لها إلا الذهب ، والفئة الثانية لا دين لها إطلاقا ولا شخصية ولا نفس ؛ لأنها آلات

صماء . . . إن نظام تقسيم العمل قد أدى إلى أن صنع الدبوس الواحد أصبح محتاجاً إلى ثمانى عشرة عملية مختلفة ؛ كما يقول « آدم سميث » ، وأن العامل الواحد قد يقضى حياته كلها فى صنع رأس الدبوس فقط ، وآخر فى صنع جزء آخر منه ؛ كذلك الحال فى صناعة الأحذية ؛ فهى فى بعض المعامل الأمريكية تقسم إلى أكثر من مائتى عملية ، يخص العامل الواحد منها جزء واحد من عشرة أجزاء : كعب الحذاء مثلا . . . معنى هذا أن العامل لم تبق له حتى تلك اللذة الفنية القديمة ، التى كان يحسها ويرتاح إليها ، وهو يصنع بيديه حذاء كاملا فى حانوته الصغير . . . نعم ! . . . حتى متعة الخلق الكامل ، التى كانت تشعره بآدميته قد ذهبت ؛ وأصبح الآن شأنه شأن المخرطة أو المطرقة أو المنشار ؛ يخرط ، أو يطرق ، أو ينشر ، جزءاً صغيراً معيناً بالذات من هذا الدبوس أو ذاك الحذاء ، وهو يكرر هذه العملية التافهة كل حياته ! . . . ما الفرق بينه إذن وبين الآلة ! . . . لا فرق ؛ إن الرجل الشرقى ما زال يحس آدميته بالنسبة للشىء الذى يصنعه ، ويخلقه بيديه ؛ آنية من الفخار كان ، أو حذاء ، أو رداء منسوجا على نول ، أو قطعة أرض يزرعها ، ويجنى ثمارها ! . . . إنه لم ينقلب بعد — لحسن حظه — منشاراً آدمياً ، أو مخرطة بشرية ! . . . استمع إلى الكاتب الإنجليزى « ألدس هكسلى » يصف أوربا الحديثة : « إن أسلوب الحياة فى العصر الحاضر ليدعو إلى الاشمئزاز ؛ ذلك أن تطور النظام الصناعى قد أدى إلى نمو فجائى لتعداد أوروبا ، ففى نحو قرن

واحد تضاعف سكانها ، ثم جاء بعد ذلك التعليم الابتدائى للجميع ، فنتج عنه ظهور جمهور هائل من القراء ، ونشط لهذا الجمهور أصحاب الأعمال ، فأنشأوا صناعة جديدة : هى صناعة مادة القراءة ! ... هذه « المادة المقروءة » لم تكن — ولا يمكن أن تكون مطلقاً — غير بضاعة من النوع الردىء جداً ! ... لماذا ؟ ... تلك مسألة حسابية : إن عدد الكتاب ، أصحاب الموهبة الفنية ، قليل دائماً ... ومن هنا نرى أن الجانب الأكبر للأدب المعاصر ، هو دائماً غاية فى الرداءة. ولما كان الأوربيون قد اتخذوا عادة القراءة طول الوقت — وتلك رذيلة ؛ كعادة تدخين « السجاير » ، بل ربما كتدخين « الأفيون » أو تعاطى « الكوكايين » فإن أوروبا اليوم تتغذى بأدب من الطبقة العاشرة ... وهذا كله حدث جديد ؛ إذ فى الماضى لم يكن الناس يعرفون غير قليل من الكتب حقيقة ، لكنها كانت من أجود نوع ، ولأضربن مثلا بالإنجليز ؛ فلقد كانوا إلى عصور قريبة يشبون على « الكتاب المقدس » وعلى « رحلة الحاج » لـ « جون بانيان » ! ... كتابان لا نظير لهما فى نبل المعنى وصفاء الأسلوب ! ... أما اليوم فإنهم يشبون على « الديلى إكسبريس » وعلى المجلات والقصص « البوليسية » فالتعليم العام كان له هذه النتيجة السيئة : فهو بدلا من أن يجعل الناس يقرءون قليلا الآثار الخالدة قد جعلهم يقرءون دائماً حماقات مخجلة ! ... إن الفن القديم قد يقصر أحياناً عن الإجادة ؛ لأنه ساذج أو ناقص ، ولكنه لم يكن

يوماً قط مبتذلا ... لماذا ؟ ... لأن الأقدمين لم تهيأ لهم الأسباب أن يكونوا مبتذلين ! ...

فأطرق « محسن » قليلا ثم قال :

— نعم ، ربما كان هذا صحيحاً ! ... إن الأعرابية فى خيمتها ، تلك التى كانت لا تعرف ما هى القراءة والكتابة ، كانت تتذوق الجيد من شعر جرير ، والأخطل ، والفرزدق ، وتتغنى بأحسن أغانى مصعب ، ونصيب ، وإسحاق الموصلى ، وتطرب للفجر الجميل ، وتهتز نفسها لنسيم الأصيل ، وتفضل الصحراء — بفنتها الطبيعية — على سحر القصور الزائف ! ... إن مستوى الذوق العام — وبالأحرى مستوى الثقافة الحقيقية — لا شأن له بكتابة أو قراءة ! ...

فقال الروسى بقوة :

— على النقيض ؛ إن فكرة التعليم العام للقراءة والكتابة كغيرها من بقية الأفكار الأوروبية الخاطئة التى روجتها أوربا ، وجعلتها بمثابة المبادئ الثابتة ثبوت العقائد ، قد انقلبت فتاكة لجوهر الطبيعة البشرية ؛ فالدهماء التى تعلمت الرموز السخيفة ، ماذا اكتسبت ؟ ... لقد حشيت أدمغتها بسخف وقاذورات كما يقول « هكسلى » ، وهبط مستوى ذوقها ، ومع ذلك لم تتكون لها شخصية ولا إرادة ؛ فها أنتذا تراها تنقاد كالخراف إلى كل من يقوم فيها ناعقاً أمام « ميكروفون » ؛ فالدهماء هى الدهماء ، ولا أصلح لقلبها

وعقلها من وسائل الشرق الطبيعية فى التهذيب : تعمير قلبها بالدين وعقلها بالكتب السماوية النبيلة الفصيحة ، وتركها تتصل بالطبيعة لا « محفوظة فى علب » : الراديو والسينما والكتب ، ولكن الطبيعة الحقيقية ، أمنا الرءوم ؛ تكشف لهم عن جمالها وأسرارها مباشرة ، بغير وسيط من الرأسماليين المغامرين ، وأصحاب الأعمال الأفاكين !.. تلك هى نتائج العلم التطبيقى عندما ترك فى أيدى الأوربيين ، وذاك أثره فى النفس الإنسانية ، انظر بعد ذلك أثره فى جسم البشرية ، تجد أنه استحال إلى قنابل وغازات خانقة وطوربيد وغواصات ودبابات ، إلى آخر ذلك الإبداع والتفنن فى وسائل الفتك بأجسام البشر ؛ فالعلم التطبيقى فى الغرب كل محوره تحطيم البشرية روحاً وجسما !... إن العلم ، تلك « الماسة » العظيمة المتألقة ؛ لم تضعها أوروبا فى قمة عمامتها ، لتشع نورا وجمالا ، ولكنها وضعتها سن مخرطة بخارية ، لتقطع بها زجاج ذلك الكأس العظيم : كأس البشرية الممتلئ بماء روحها ، ومادة جسدها ! ... أما العلم الصرف ، البعيد عن ضوضاء « الآلة » ، ومطامع أصحاب المنافع ، فإن الشرق هو الذى عرفه لذاته ، كمظهر من مظاهر العبقرية الآدمية المفكرة ، فى تعطشها لمعرفة الحقيقة العليا ! ... وهنا كل نبل العلم ، وسمو غايته ... هذا العلم الخالص أورثته أفريقيا وآسيا فتاتهما الشقراء أوروبا ، سبائك ذهبية وأحجاراً كريمة من الزمرد والفيروز والياقوت ، فاحتفظت الفتاة ببعضه ، وجعلته حلياً لبهرجها ، وهنا

كل جمال أوروبا الفكرى الباق ، أما بقية الكنوز فصهرتها وصكتها نقوداً تضعها فى المصارف ، وصنعت منها أغلالا تستعبد بها العالم ! .. ومع ذلك فهى لم تعرف التحلى بالعلم لذاته إلا منذ عهود قريبة ! ... لا تنس أن أوروبا هى الوحيدة التى أعدمت فى يوم كل علمائها حرقا ، واتهمتهم بالسحر والجنون ، وخنقت حرية الرأى حتى فى شئون الأدب والفن ... وجعلت من المسيحية ، التى تبشر بالمحبة والسلام ... سلاحا للفتك أمام محاكم التفتيش ... ولكن أوربا اليوم أبرع قليلا من ذى قبل ، فهى تجيد إخفاء حيوانيتها ، تحت ريش صناعى يمثل أجنحة ملك سماوى ... إن أوربا اليوم فى أزمة شديدة ... لا شك أنها أخطر أزمة مرت بها ؛ ذلك أنها قد تنبهت أن مازعمته مدنية عظيمة قد أفلس ، وظهرت من تحت الريش أنياب الخنازير البرية ! ... وقد فهم الشرق أن فتاته ليست إلا غانية خليعة ، لا قلب لها ولا ضمير ، وليست لها قيمة روحية ولا خلقية ، وأن مآلها السقوط ، ممزقة الجسد ، تحت موائد المعربدين ، فى ذلك الحان الذى تشرف نوافذه من جهة ، على المحيط الأطلنطى ، ومن الجهة الأخرى على البحر الأسود ! ... أيها الصديق ! .. إلى الشرق ! ... إلى الشرق ! ... فلنرحل معاً إلى الشرق ... إن أجمل ما بقى لأوربا إنما أخذته عن الشرق ! ... لم تعد حياتى هنا ! ... ماذا نصنع الآن ها هنا ؟؟ ... حتى راحة النفس لانجدها هنا ... إن العودة إلى الهدوء والصفاء هى فى عودتنا إلى فضاء الصحراء ، هناك نستنشق بملء

رئتينا ، لادخان المداخن ، ولكن رائحة السماء ، هناك لا نجد تلك السحب الكثيفة ، التى تحول بيننا وبين الله ؟ ... هلم بنا ؛ لقد يئست .. إن قليلا من الأمل كان قد داعب قلبى ؛ إذ تذكرت منذ أيام حكاية عودة الشاعر الفرنسى « كوكتو » إلى حظيرة الكنيسة ، وأنت لا شك تعرف حكاية هذا الشاعر القلق ! ... لقد استنفد كل حياة الفكر والفن ، وعرف المجد الأدبى ، وانغمس فى نهر الحياة اللاهية ، وبلغ كل ما يستطيع أن يبلغه الفكر الشارد وحده بعيداً عن الإيمان ! ... فماذا حدث ؟ ... تملكة السأم من الحياة ، وشعر بالنقص فى كيانه ، وبالفراغ فى قلبه ؛ فضاق ذرعا بأيامه ، فألقى بنفسه القلقة فى أحضان « الأفيون » ، لعله يجد فيه الشفاء والراحة ... استمع إليه يقول فى خطابه ، إلى صديقه الفيلسوف « جاك ماريتان » إن الأفيون ليحملنا إلى نهر الموتى ، إنه ينسخنا ، أو يحولنا إلى شبه مرج من المروج اللطيفة ، ويجعل من جسدنا ليلا ، تتزاحم فيه النجوم ، كأنها النمل ، ولكن سعادتنا هى سعادة فى مرآة نغدو فيها من رءوسنا إلى أقدامنا محض أكذوبة وإذا نحن كالمومياء تقف آلة الأجسام وتأبى الأعضاء أن تطيع ، لا توثر فينا تقلبات الطقس ، وما نعود نشعر ببرودة أو حرارة ! .. لقد كان مصورو « نابلى » يزينون حيطان المساكن ، بما يسمونه « خدعة العين » .. إن « الأفيون » ليس إلا مصوراً طريقته « خدعة الروح » ، إنه يزين حيطان الحجرة التى أدخن فيها بتصاوير تلذ لى وتريح نفسى ، إن

الأفيون هو طارد الحيرة والقلق ... إن الأفيون ليشبه « الدين » بالقدر الذى يشبه فيه « المشعوذ » « المسيح » ! ... إلخ ... إلخ . وأشرف « كوكتو » أخيراً على الدمار ، إلى أن ألقى بنفسه فى أحضان الدين ، هنا كان أملى الأخير أنا أيضاً ؛ إذ اعتقدت أن الأوربى المفكر ، الذى شب على هذه المدنية ، يستطيع أن يعود إلى الإيمان الحقيقى فى الوقت المناسب ، إلى أن قرأت هذه الرسالة المتبادلة بين « كوكتو » وماريتان فخامرنى الشك ... إنها رسائل على غاية ما تكون من البراعة فى الأسلوب ، واتقاد الذكاء ، ولكنها ليست أكثر من « قطع أدبية » ! ... آه ، إنهم يكتبون « أدبا » ، هؤلاء الناس — حتى يوم يوهموننا أن المسألة مسألة حياة أو موت — إن الفرق بين عبقرية الغرب الروحية ، وبين عبقرية الشرق الروحية ؛ كالفرق بين « المشعوذ » و« المسيح » ! ... خذ هذين الكتيبين : اقرأهما ، وأخبرنى هل تصدق أن هذين الرجلين يعتقدان حقاً بالسماء وما فيها ؛ من جنة ونار ، اعتقاد ذلك المسلم الذى قلت لى الآن : إنه ألقى البلح من يده ، وجرى يقدم نفسه للقتل ؛ واعتقاد أولئك الشهداء من المسيحيين الغابرين ! ... إنى أفهم أن يتكلم هؤلاء الشعراء الأوربيون عن الدين والمسيح كلاما كله إعجاب خالص ! ... إنى أيضاً أعجب الإعجاب الخالص بالأديان ، ولكن الذى أريد ليس مجرد الإعجاب ، كما نفعل أمام قطعة فنية ، من عمل عظماء الفن أو الأدب أو الفكر ! ... لست أريد الإعجاب الناشئ عن آلاتنا المفكرة ، وما فيها

من بضاعة ثقافية مكتسبة أو موروثة ؛ إنما أريـد الأيمان ؛ إيمان القلب ، الإيمان الأعمى بأن المسيح فى السماء ، وأن الله هو الله كما يتصوره البسطاء ، وأن الجنة هى الجنة كما يتخيلها أولئك الذين قال فيهم المسيح « طـوبى للـمساكين بالـروح لأن لهم ملكـوت السموات ! ... طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله ! ... » آه يا صديقى ، يا أخى ! ... إن أوروبا كلها الآن ليست إلا رجلا مفكراً قلقاً حائراً يتعاطى الأفيـون ... إن « جـان كوكتـو » هـو كل « أوروبا » فى أزمتها الحاضرة ! ... انتهت أوروبا « ولا شيء من داخلها يستطيع إنقاذها ؛ لأن كل شيء يصل إلى « عقليتها » هذه — تحوّله إلى أدب وأسلوب وزيف وكـذب ! ... إنما الإنقـاذ مـن الخارج ، إنما النجاة فى الفضاء . إلى هناك ... إلى الشرق ... قم معى ... إلى الشرق ! ... افتح هذه النافذة ... دع الهواء يدخل ، أخلع عنى هذه الأردية الثقيلة ، هـذه السحب الكثيفـة تحجب عنى ...

وامتلأ فم الروسى برغوة وزبد ، ووضع يده على عنقه يمزق قميصه ، كأنما هو يختنق ، واصفـر وجـه « محسن » ، ولم يبـد حراكا ... ثم تنبه قليلا من ذهوله ، فصاح صيحة مدوية ، وأسرع إلى الباب يطلب النجدة ! ...

الفصل العشرون

اعتكف « محسن » بضعة أيام ، علم خلالها أن صحة « إيفانوفتش » غاية فى السوء ، وجاءه صاحب النزل ذات صباح يطرق عليه بابه ... ففتح له منفزعا :

ــ ما الخبر ؟ ...

ــ صديقك الروسى ...

ــ مات ؟ ...

ــ لما يمت بعد ، ولكنه يسأل عنك اليوم منذ طلعت الشمس ...

ــ وكيف حاله ؟ ...

ــ لست أدرى ، هو يزعم أنه اليوم بخير ، ولكنه مريض بذات الرئة ؛ كما تعلم ، داء لا يرحم ... أتذكر ذلك اليوم عندما صحت مستنجداً ؟ ... لقد أغمى عليه أيضاً فى المساء ، وكان فى حالة احتضار حقيقية ، فاستدعينا له القسيس ، ولكنه ما فتح عينيه قليلا وأبصره حتى صاح فيه وفينا بصوت خائر لكنه ثائر :

ــ « أبعدوا عنى هذا السكير بوجنانة الموردة » ! ...

وتصور عندئذ أى حرج وقعنا كلنا فيه ! ...

ــ على أى حال ، قد بلغتك يا مسيو « محسن » ، ولك أن تذهب

إليه إذا شئت ، أو لا تذهب ...

وخرج صاحب النزل ، تاركا الفتى فى مكانه مطرقا مفكراً ...
ولم يجد « محسن » بدا من الذهاب إلى « إيفان » على الفور ، فقام ومضى إلى حجرته ، فوجده فى فراشه ، يتأمل أشعة الشمس الداخلة من النافذة ، وتنبه الروسى لحركة دخول « محسن » فوجه بصره إليه ، وأشار له بعين باسمة إلى شعاع ذهبى انعكس على الفراش :

— ما أجمل الشمس اليوم ! ...

— نعم ..

قالها الفتى فى غير اكتراث ، وهو يتأمل وجه الرجل الشاحب ، وفرحه الذى يشبه فرح الأطفال السُّذَّج بهذا الشعاع فوق سريره ، وساد صمت ، قطعه المريض بشبه همس :

— آه ! ... النور ... النور يشرق من بلاد الشمس « ليغرب » فى بلاد الغرب ! ...

ثم التفت إلى « محسن » وقال له فى صوت متداع :

— اقترب يا صديقى ، وأنهضنى قليلا ... فإنى سئمت طول الرقاد ! ..

فتردد الفتى خوفاً عليه :

— إنى أخشى ...

— لا تخش شيئاً ، ضعنى بجوار النافذة ، أعنِّى على الجلوس ، حيث يغمرنى نور الشمس ! ...

فلم ير « محسن » بدأً من تلبية رغبته ... فساعده على القيام ، ومشى به إلى ظهر صندوقه الخشبي ، حيث وضعه عليه وضعاً ، فقال الروسي وهو يستنشق الهواء بما بقى له من رئتين :

— شكراً لك ... أيها ... الصديق ! ...

ثم أمسك بيد « محسن » بين يديه ، ونظر إليه طويلا وقال :

— أتعاهدنى ؟ ...

— على ماذا ؟ ..

— أن نذهب معاً إلى ... الشرق ؟ ...

فتردد الفتى قليلا ثم نظر إلى كيان الرجل الواهى :

— نعم ، عندما تسترد كل صحتك ! ...

— إنى أشعر اليوم أنى قد شفيت ، إن صحتى اليوم تسمح لى أن أسافر ، اليوم بالذات ! ... اسمع : إن لدى فى هذا الصندوق مبلغاً من المال ادخرته يكفى نفقات السفر ! ... وسأخرج اليوم أبحث عن مشتر لهذه الكتب وهذه الأمتعة ... لست فى حاجة إلى كتب بعد اليوم ، إنما أنا فى حاجة إلى هواء ... وفضاء ... وصفاء ! ...

وخشى « محسن » أن تنمو الفكرة فى رأس هـذا المريض ، فيرتكب حماقة تسىء إلى صحته .. فلم يبد تحمساً لما قال .. ثم أراد أن يثنيه عن عزمه ، فقال :

— أرى أنك تقسو فى الحكم على الغرب يا مسيو « إيفان » مهما يكن من أمر ، فإن أوروبا قد وصلت بالعلم البشرى إلى قمم لم يصل

إليها ...

فلفظ الرجل ضحكة سخرية ، وقال :

— من قال لك ذلك ... أتعرف ما هو العلم أيها الفتى ؟ ... إن العلم « علمان » : العلم « الظاهر » والعلم « الخفى » وإن أوروبا حتى اليوم طفلة ، تعبث تحت أقدام ذلك « العلم الخفى » ، الذى كانت حضارات أفريقيا وآسيا وقد وصلت به حقيقة إلى قمم المعرفة البشرية ... أما العلم « الظاهر » وحده فهو كل ميدانها ، إلا أن طاقة الآلة المفكرة محدودة ، وأن كل وسائل العلم الظاهر هى أعضاؤنا وحواسنا الظاهرة ، وتلك ليس لها من الدقة ما يقتنص ، غير الظواهر التافهة ؛ من ظواهر الطبيعة والكون — مهما تعاونها الآلات والعدسات ... كل هذا العلم الحديث الذى يبهرك ، ليس فى حقيقته غير « طريقة » و « أسلوب » ! ... نعم ، إن الجديد حقاً فى العلم الأوربى الحديث هو « أسلوب » التفكير المنتظم و « طرائق » البحث العقلى المرتب ، أما أكثر من ذلك فلا ... وأما أن نسمى مجرد استكشاف بعض خواص الطبيعة بحواسنا ، وصولا إلى قمم المعرفة البشرية ، فتلك هى السخرية الكبرى ! ... إن قمم المعرفة البشرية هى فى مجاهل ذلك « العلم الخفى » ، الذى لم يدخل قط عقل أوربا ؛ لأن وسائلها كما قلت لك لا تهيئها إلا لفهم مظاهر الحياة السطحية ، ولا أقسو عليها إذا استعملت كلمة « السطحية » لأنها هى الحقيقة .. إن عين العلم الأوربى لا تقع دائماً إلا على سطح الأشياء ؛ ككل

عين ! ... إنها مدنية لا تدرك ولا تعترف إلا بما يقع تحت لمسها وبصرها ومنطق غقلها ، ولا تقوم إلا على عالم المحسوس ، وإنى أصرّ على أن هذه المدنية الكبيرة إن هى إلا « مدنية ناقصة » ؛ لأنها لا تعرف الحياة إلا فى « عالم واحد » ! ... أريد أن أهرب إلى البلاد التى تعيش فى « عالمين » ، تلك البلاد التى ارتفعت فيها المعرفة البشرية إلى قمم « العلمين » ...

وسكت الرجل قليلا ، ولمح « محسن » التعب على وجهه فقال له :

— لا تتكلم كثيراً ! ... أرجو منك ذلك ... حسْبنا ما حصل فى المرة السابقة ! ...

— لن أتكلم ، كفى كلاما ... ولكنى سأفعل ! ... إلى العمل ! ...

ثم تحامل ونهض قليلا مستنداً إلى الحائط فأسرع إليه « محسن » :

— إلى أين ؟ ...

— أرتدى ثيابى ؛ لأخرج فأبيع هذه الكتب ... وأتهيأ للسفر ...

— ليس الآن ، ليس الآن ... إنك متعب ..

— دعنى ، أيها الشاب ، سنذهب إلى الشرق ، أريد أن أرى جبل الزيتون ، وأن أشرب من ماء النيل وماء الفرات وماء زمزم وماء ...

— ونترك هذه البلاد ... وهذه الحضارة ... ونترك « بيتهوفن » ؟ ... آه يا مسيو « إيفان » ! ... إنك تستطيع أن تقول

كل شيء عن الغرب فأسمع لك ، ولكن « بيتهوفن » ها هو ذا نبي حقيقي ! ... ها هو ذا رسول للمحبة والسلام ، خليق أن يرفع مجد الغرب أبد الآبدين ... وأن يطهر الإنسانية وأن ينير القلوب ! ...

فالتفت الروسي إلى « محسن » قائلا في قوة :

— بيتهوفن ! ... بيتهوفن ! ... نعم « بيتهوفن » ، و « هاندل » ، و « موزار » ، و « هايدن » ، و « جان سباستيان باخ » ، و « ميكل آنج » و « رفاييل » ، و « رمبرانت » ، و « باسكال » ، و « سان توماس » ، و « كوبرنيك » ، و « جاليليه » ، و « دانتي » ... إلخ . إلخ ... كل أولئك إن هم إلا زهرات يانعات في حديقة المسيحية الغناء ! ...

ثم وضع يده على كتف « محسن » المطرق الساهم :

— ... هلم إلى المنبع ! ... إلى المنبع ؟ ... إلى هناك ... إلى هناك ! ...

ثم ترك الفتى في إطراقه ، وتحامل متكئاً على الحائط ، يبحث عن حذائه وسترته ... ومرت في رأس « محسن » خواطر ، وبدت له صور من الشرق اليوم ، فرفع رأسه وقال لصاحبه الروسي :

— ألم تر الشرق قط من قبل ؟! ...

فأجاب الرجل ، وهو يضع حذاءه في إحدى قدميه :

— لم أره قط إلا في أحلامي ... ولكني لن أموت قبل أن أراه ! ..

فأطرق « محسن » مرة أخرى ، وهمَّ أخيراً أن يرفع رأسه ليقول !

« إيفان » :

ــ مهلا ، مهلا أيها الصديق ! ... إن ذلك المنبع الذى تريد أن تراه ، وتلك الأنهار التى تريد أن تشرب منها ؛ قد تسممت كلها ! ... إن « الفتاة الشقراء » يوم حقنت فخذها « بالمورفين » السام لم تترك أبويها سالمين ؛ لقد قضى الأمر ، ولم يعد هنالك نبع صاف ؛ فإن الزهد قد ذهب كذلك من الشرق ! ... وإن رجال الدين هناك يعرف بعضهم اليوم كذلك اقتناء السيارات ، وقبض المرتبات ، وتورد الوجنات من النعم والمتع ، وإن ثياب الشرق الجميلة النبيلة هى اليوم خليط عجيب من الثياب الأوروبية ، يثير منظره الضحك ؛ كما يثيره منظر قردة ، اختطفت ملابس سائحين من مختلفى الأجناس ؛ وصعدت بها فوق شجرة ترتديها ، وتقلد حركات أصحابها ! ... وإن التعليم العام للقراءة والكتابة ، وحق التصويت والبرلمان ، وكل هذه الأفكار الأوروبية قد أصبحت فى الشرق اليوم مبادىء ثابتة ، يؤمن بها الشرقيون إيمانهم ــ بل أكثر من إيمانهم ــ بمبادىء الأديان ! ... وإنه لمن السهل أن تقنع شرقياً اليوم بأن دينه فاسد ، ولكن ليس من السهل أن تقنعه بأن « الصناعة الكبرى » هى عجلة « إبليس » التى يقود بها الإنسانية إلى الدمار ... أو أن التعليم العام لرموز الكتابة نوع من الهراء ، وإنك قد تستطيع اليوم أن تقتلع من رأس الشرق عظمة السماء ... ولا تستطيع مطلقاً أن تقتلع منه عظمة « العلم الأوروبى الحديث » ، وإنه لمن اليسير أن تسفه عند

الشرق الآن « رسالة » الأنبياء ، ولا يمكن أن تسفه لديه « رسالة » القوة المادية الحديثة ! ... بل من العجيب أن هذه الأفكار والمبادئ التى تعتبر فى الشرق اليوم ثابتة ثبوت الآيات المنزلة ، قد يناقشها الأوربيون أنفسهم وينقضونها ، وهى ما تزال حافظة عندنا كل قوتها ! ... وإن المدفع قد ينطلق فى أوربا ضد بعض هذه الأفكار ، ونرى ضوء لهبه ، ولكن الصوت لا يصل إلى آذاننا ... لا لبعد المسافة ؛ بل لأن آذاننا لا تسمع ، وقلوبنا لا تعى ! ... لقد كانت « الحقنة شديدة الفعل والأثر ... نعم ، ولا أحد يدرى هل أوربا حقنت الشرق بأفيون خالص أو بأفيون ممزوج بسم ناقع ، سرى — وما زال يسرى — فى شرايينه يقتل كل بذور المثل العليا الشرقية فى النفوس ؛ فشبان الشرق اليوم — عندما أرادوا أن يتخذوا لهم مثالا للرجولة والبطولة — لم يتجهوا شطر « غاندى » ولكنهم اتجهوا بعيون ؛ كأنها منومة تنويم المغنطيس شطر « موسولينى » . ويوم أرادوا أن يجعلوا للتقشف والجلد والخشونة لباساً ، لم يضعوا على أبدانهم العارية القوية رداء بسيطاً من القطن ، يصنعونه بأيديهم ؛ — لكنهم ارتدوا القمصان الأوربية ذات الألوان ! ... إذن حتى أبطال الشرق قد ماتوا فى قلوب الشرقيين ! ..

نعم ، اليوم لا يوجد شرق ! ... إنما هى غابة على أشجارها قردة ، تلبس زى الغرب ، على غير نظام ولا ترتيب ولا فهم ولا إدراك .

لم يجرؤ « محسن » أن يقول مثل هذا الكلام لصاحبه الروسى ؛

فقد أدرك أن هذا الرجل ، الذى لم يستطع شىء فى الغرب أن يشفى نفسه القلقة الحائرة ؛ قد وضع كل أمله فى الشرق ، وقد صنع للشرق فى رأسه صوراً عظيمة هى كل أمله الباقى ، وإن كشف الحقيقة لعينه الآن أفظع طعنة يقتل بها هذا المسكين ، فتركه فى خيالاته ، ورفع الفتى رأسه أخيراً ليرى ماذا يصنع صاحبه ، فألفاه ملقى على ظهر الصندوق ورأسه إلى الحائط وفى إحدى قدميه الحذاء ، فأخذه روع لمرآه وأسرع إليه :

ــ ماذا بك ؟ ... مسيو « إيفان » !... ماذا بك ؟ !...

فقال الرجل فى صوت كالحشرجة :

ــ فات الأوان ! ...

ــ أى أوان ؟ ...

ــ اذهب أنت وحدك ... إلى ... هناك ...

ــ أأستدعى لك الطبيب ، يا مسيو « إيفان » ؟ ... أأطلب لك ؟ ...

ــ لا ... لا تفعل شيئاً ... إنى ... أعرف نفسى ...

ومال رأسه ، وانطفأ النور الباقى من عينيه ، لكنه تحامل وقال فى صوت لا يكاد يسمع :

ــ اذهب أنت يا صديقى ... إلى هناك ... إلى النبع .. واحمل ذكراى وحدها معك ... وداعاً ..

رقم الإيداع بدار الكتب ١٠٧٠٥ / ٢٠٠٣

I.S.B.N 977 - 01 - 8560 - 4



وبعد أكثر من عشرة أعوام من عمر مكتبة الأسرة نستطيع أن نؤكد أن جيلاً كاملاً من شباب مصر نشأ على إصدارات هذه المكتبة التى قدمت خلال الأعوام الماضية ذخائر الإبداع والمعرفة المصرية والعربية والإنسانية النادرة وتقدم فى عامها الحادى عشر المزيد من الموسوعات الهامة إلى جانب روافد الإبداع والفكر زاداً معرفياً للأسرة المصرية وعلامة ف
مسيرتها الحضارية.

التنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الثمن ١٥٠ قرشاً